جـار الله عمـر

# كفاح الإنسان في سبيل الديمقراطية

جارالله عمر

# كفاح الإنسان في سبيل الديمقراطية

## تقديم :

## د. عبدالعزيز المقالح*

أتقدم - في البدء - بخالص الشكر إلى قيادة الحزب الاشتراكي أولاً على الاهتمام بنشر هذا الأثر الفكري العظيم للشهيد المفكر والمناضل جارالله عمر. و-ثانياً- لأنها اختارتني لكتابة مقدمة هذا الأثر والانتفاع بإعادة قراءاته بعد أن كنت تابعته عند نشره في صحيفة الأمل منبهراً بالقدرة الفائقة للصديق جارالله على طرح أهم الأفكار الخلاقة التي اكتسب بعضها من تجربته المعرفية والبعض الآخر من مصادر مختلفة وعرضها بسلاسة ووضوح في تدرج تاريخي وافٍ وتحليل شامل وعميق تلمّس خلاله نشأة الديمقراطية ورحلتها الشاقة بين البشر وكفاحهم في سبيلها منذ سقراط إلى مفكري عصر التنوير وإلى الديمقراطيين الليبراليين وحتى الأفغاني ومحمد عبده والزبيري، وكيف شكّلت الحرية والديمقراطية في كل الأزمان والبلدان حلماً حقيقياً للمفكرين ودعاة الإصلاح السياسي والاجتماعي بوصفها طوق النجاة للشعوب التي ترغب في حماية أبنائها من الاقتتال والصراعات الدامية، وكذا

لتوفير التطور السلمي لبلداننا بعيداً عن دورات العنف، والحرب الأهلية، لأن الديمقراطية تضمن حق التعبير عن آرائهم بحرية فلا يساقون كالأغنام أو يجبرون على الطاعة العمياء لكل ما تطرحه الأقليات الحاكمة من قضايا أو تسنه من قوانين وتشريعات ليست عادلة ولا تخدم الصالح العام.

وإذا كان النضال الوطني في بلادنا نهر لا يجدّه مجرى ولا تفصل بين مياهه المتدفقة فجوات، إذ يغيب جيل ويطلع جيل، ويرحل مناضل ليولد آخر، فإن الوسائل إلى تحقيق هذا المبدأ كانت تختلف من مناضل إلى آخر، ومن مرحلة إلى أخرى، فقد كان الأحرار الدستوريون في بلادنا يحلمون بنظام ملكي دستوري إلاّ أن ثوار سبتمبر وأكتوبر كانوا أكثر طموحاً حين ارتقت أحلامهم إلى النظام الجمهوري بوصفه التجسيد الكامل للنظام الدستوري غير الخاضع للتوريث والتأبيد، ونجح البعض من الثوار بإضافة الاشتراكية إلى الجمهورية، وهو توق مشروع يفرضه حنين الملايين إلى العدالة الاجتماعية والانتصاف لمن لا يملكون شيئاً ممن يملكون كل شيء، وبمضي الزمن بوتائره المتسارعة تمحورت أحلام عدد من المناضلين حول فكرة الديمقراطية بمفهومها الشامل القائم على حرية التعبير، وحرية الرأي والرأي الآخر.

وقد شهد واقعنا المحلي حالة مؤسفة ينبغي التوقف عندها طويلاً لا لمناقشتها وإنما للتأمل في أبعاد انكساراتها

وتشظيها، تلك هي أن البلاد لم تشهد منذ الثورة (سبتمبر / أكتوبر) اختلافاً حقيقياً في الرأي والرأي الآخر، وإنما شهدت نماذج من الصراعات والخصومات الثائرة أفقدت البلاد جزءاً كبيراً من الوقت وعدداً كبيراً من الرجال الذين لو عاشوا في مناخ سياسي حر ديمقراطي وصحي لما كانت الأوضاع قد وصلت إلى ما وصلت إليه من الاختلافات الحادة غير المبررة، وغير المفهومة سياسياً ووطنياً. ومن الثابت بل والمؤكد أن ما حدث كان ناتجاً عن غياب الديمقراطية وعدم القبول بالآخر المختلف، والتمسك بالعمل السياسي خارج شرط الممارسة الديمقراطية، والإصرار الخاطىء على ارجائها تحت مزاعم الحفاظ على الثوابت الفكرية للثورة في حين كان ينبغي أن تكون الديمقراطية في مقدمة تلك الثوابت لأنها تعزز من حرية الرأي والفكر، وتزكي أهمية الاختلاف المنطلق من الرغبة في تصحيح الأخطاء بصورة موضوعية، وبما يتفق مع الحقائق التاريخية، لا من المصالح الشخصية والذاتية. ولا شك أن الشهيد جارالله قد أدرك بوعيه الوطني والسياسي هذه الحقيقة فبدأ منذ ما قبل قيام الوحدة يبشر بالديمقراطية والتعددية، ويدعو إلى عهد جديد يتجاوز فيه السياسيون اليمنيون الصراعات من خلال الاعتراف بالآخر والقبول بفكرة التعددية والتداول السلمي للسلطة.

وأتذكر - هنا - نشاطه اللافت قبل الوحدة بأكثر من سنة

إقناع القيادات السياسية بضرورة الخروج من نفق الانغلاق على الحزب الواحد، والدخول إلى فضاء التعددية السياسية والحزبية، واضعاً تجربة الأحزاب «القائدة» على طاولة النقاش، هناك في عدن، وهنا في صنعاء مستفيضاً في شرح ما اعترى تجربة الحزب القائد من انشقاقات داخل السلطة الواحدة نتيجة الاستئثار من جهة وغياب الديمقراطية من جهة ثانية. وكان ينظر بصدق إلى أن التعددية وتشجيع فكرة الاختلاف، والتعدد والتنوع في الرؤى، لأن ذلك وحده يحمي الأحزاب ذاتها من الإنقسامات والانشقاقات ويفتح أمامها باب التطور الطبيعي التدريجي السلمي، وهو كذلك ما يحمي الوطن وأبناءه من الانقلابات والتصفيات. وقد استجاب كثيرون لدعوة جارالله، وكنت واحداً ممن اختار الحديث إليهم وقضاء الساعات الطوال في شرح وجهة نظره التي أصبحت بعد قيام الوحدة بالنسبة له نهجاً غير قابل للتعديل أو الانتقاص. ولا شك أن شعبنا - بعد كفاحه الطويل - يستحق الديمقراطية بمعناها الصحيح، وليست الديمقراطية التي تحولت إلى شعار أدرجته الأيام إلى قائمة الشعارات الجميلة التي امتهنها الاستهلاك اللفظي بعد أن صارت على كل لسان، فالحاكم ديمقراطي، والأحزاب والمنظمات السياسية والفكرية تزعم كلها أنها ديمقراطية، في حين أن الواقع كان يقول غير ذلك تماماً، ولا ينكر أحد أن فكرة الديمقراطية قد تعمّقت بعد الوحدة حيث

استجدت - يومئذ - أمام السياسي المثقف أسئلة وتحديات جديدة لا يمكن تجاهلها أو مواجهتها بالصمت. وكان جارالله عمر في طليعة المثقفين السياسيين الذين حاولوا الإجابة عن هذه الأسئلة في أوانها. ولم يكن هذا الكتاب سوى واحد من تلك الإجابات العميقة التي تتمسك بالتفاؤل والأمل. وتدعو إلى التحلي بالوعي والإرادة وكانت صيغة أحزاب اللقاء المشترك التي سعى إليها بإخلاص واحدة من أهم انجازاته على الصعيد الوطني وإن كانت قد قوبلت في بداية الأمر برفض حاد لا سيما من الرعيل السياسي القديم الذي كان مسكوناً بالنظر إلى اختلاف منابع الرؤية وما تركته الصراعات السابقة من جراحات وندوب إلاّ أن جارالله بإصراره وإخلاصه منقطع النظير قد وصل إلى غايته وتكلل جهده الفذ بالنجاح وإن كان قد بذل حياته ثمناً لهذا النجاح. وأكرر القول بأن هذا الكتاب يختزل آراءه ومواقفه عن معنى الديمقراطية واستعداده للاستشهاد في سبيلها. ولعل أنصع دليل على ذلك الكلمة الوصية التي استُشهد بعيد قراءتها بلحظات، وفيها اختزال مكثّف لأجمل وصايا الديمقراطية العاكسة لحقيقة روحه، وعقله التعددي الحر.

وكما كان للثورة الدستورية شهداؤها، وللجمهورية شهداؤها، فقد صار للديمقراطية شهداؤها أيضاً وسيظل اسم الشهيد جارالله في طليعة الأسماء المضيئة التي ناضلت حتى

الاستشهاد من أجل إطلاق الحريات والاعتراف بالرأي والرأي الآخر. والتعايش بين الأفكار والمذاهب والأحزاب لبناء الوطن وتطوره بدلاً من الاقتتال والتنافس السلبي الذي أرهق كاهل الوطن وأضرّ بالمواطنين، وأدخل الأحزاب الوطنية في أتون التناقضات ودفع بها إلى دورات من الانتقام والانتقام المضاد. وفي يقيني أن جارالله لقي ربه وهو يتذكر ما أثبته في هذا الكتاب عن نهاية سقراط الذي تجرّع السم باسماً من دون أن يفرّط في حرية اختياره، وكان أول شهيد للحرية والأحرار على موقفه الذي أثبتت الأيام بعد رحيله مسموماً مدى صحته ومجافاة خصومه لمنطق العقل والبرهان.

أخيراً مع كل كلمة أكتبها، في هذا التقديم تتحرك صورة جارالله، وتتحرك معها ذكريات خمسين عاماً، فقد عرفته في أوائل الستينيات من القرن الماضي، إذ كان أول لقاء لنا في ميدان شراره (التحرير الآن) وكان جارالله يومئذ شاباً ذكياً لافتاً للأنظار شغوفاً بالقراءة، وكانت مكتبتي المتواضعة أول ما شدّ انتباهه فقد كانت تضم عدداً لا بأس به من الكتب الحديثة التي حملتها معي من أول رحلة لي إلى القاهرة، وأكثر ما كانت تحتوي عليه دواوين الشعر والروايات ودراسات في النقد الأدبي، والقليل منها في الفكر والسياسة. وكان جارالله حريصاً - بالرغم من ميوله الأدبية - على قراءة الكتب الفكرية والسياسية، وكما أكبرت فيه ذكاءه واستنارته وسعيه الدؤوب

إلى المعرفة فقد أحببت فيه أيضاً تلك الحميمية التي تجعله يتفانى في خدمة الآخرين. ويطول الحديث إذا استقصينا لقاءات هذه المرحلة وحواراتها، وما رافقها من متغيرات سريعة على الصعيدين الوطني والقومي، لكن تبقى أهم وأوسع وأنضج لقاءاتنا هي تلك التي تمت في القاهرة وتاريخها أواسط السبعينيات، حيث أمضى جارالله فيها شهوراً للعلاج ولبلورة مفاهيم الانتقال من الجبهة إلى الحزب الاشتراكي الذي سيضم في إطاره الموحد، بعد ذلك، كل القوى القومية واليسارية، وقد استغرق هذا الهم أغلب لقاءاته وحواراته مع المفكرين والمثقفين في مصر. وأعترف أنني اكتشفته في هذه المرحلة أكثر من أي وقت مضى، ووجدته مناضلاً عميق الوعي، واضح الرؤية، ثاقب النظر يحمل قلباً لا يعرف اليأس أبداً. ولا مكان في هذه السطور للحديث عن زهده وتصوفه الثوري ومحبته الغامرة لكل الناس بما فيهم أولئك الذين كانوا يتباهون صباح مساء بأنهم من خصومه الألداء.

● كلية الآداب - جامعة صنعاء

في ٢٠١١/١١/١١م

تشهد بلادنا في هذه الأيام نشاطات سياسية مكثفة حول العديد من القضايا الوطنية الحيوية وآفاقها المستقبلية وتحظى قضية الديمقراطية وما يتفرع عنها كالميثاق والحريات العامة والشخصية بالقسط الأعظم من الاهتمام مثل ما هو الحال في كل مجتمع يبلغ مرحلة معينة من التطور السياسي والاجتماعي والاقتصادي ولو بصور نسبية وكثيراً ما تقرأ في الآونة الأخيرة العديد من المقالات التي تناقش مسألة الديمقراطية ومستقبلها في بلادنا، ونجد التركيز ذاته في أجهزة الإعلام الأخرى، وبدون شك فإن الدافع الأساسي الذي يكمن وراء الاهتمام بهذه المسألة قد أنبثق أصلاً من خلال الإشارات الواسعة والمشجعة التي وردت على لسان مسئولي الدولة الذين أعتبروا مسألة الديمقراطية في مجمل خطاباتهم وأحاديثهم الصحفية والإذاعية المتعددة مسألة مركزية ومحوراً أساسياً لنشاطات الدولة وتوجهاتها في هذه المرحلة بوصفها الأسلوب الأمثل لنسج علاقات حية وصحية بين الدولة والشعب، ومن البديهي والمشروع إن لم نقل من الضروري أن تثار العديد من المناقشات ويحتدم الجدل حول قضية هامة كهذه بل وأن تتنوع الآراء وتختلف حيالها الأقلام، ولكن على نحو إيجابي وبقصد أغنائها والوصول بها إلى الصيغة الأرقى التي تخدم

مسيرة العمل الوطني في بلادنا وتطلق طاقات الجماهير الخلاقة على طريق التطور الحضاري المنشود، وبهذا المعنى فإن الديمقراطية جديرة بكل حوار ومن المهم أن يسهم المثقفون والكتاب الوطنيون بأقلامهم بصرف النظر عن تعدد الآراء أو تباين الإتجاهات، ويجب النظر إلى أي تباينات في الرأي كأمر طبيعي وعلامة دالة على الصحة وليس العكس، وينبغي لذلك أن يقابل كل اختلاف في الرأي بعقول متفتحة تتطلع إلى المستقبل بتفاؤل مفعم بالثقة، وحتى تكتسب شعارات الديمقراطية مضامينها الحقيقية لابد وأن يعوّد كل منا نفسه على عدم الضيق بالرأي الآخر والكف عن أي محاولة لكبته، ولعل هذا هو الأساس لخلق مناخات طبيعية يغدو من خلالها التعدد في الرأي مدخلاً راسخاً إلى الوحدة الأصلب عوداً والأقدر على البقاء والتطور وإذا ما تتبعنا بشيء من الدقة وقائع السياسة للإنسانية عبر تاريخها المكتوب لوجدنا أن أشد المعارك والصراعات التي خاضها الإنسان كانت بدافع الرغبة في التحرر من قيوده، ولكن بصورة عفوية في غالب الأحيان، غير أن الكفاح من أجل الظفر بالحرية اكتسب وعياً متزايداً لدى العديد من المفكرين والعباقرة في العصور المختلفة وأصبحت في القرن العشرين قضية الحرية مطلباً جماهيرياً عاماً، ولا شك بأن الديمقراطية

تتحقق في كل مجتمع بقدر ما يحقق من تطور اقتصادي وسياسي واجتماعي أي أن الحرية السياسية تعكس بالضرورة درجة التطور في كل مجتمع من المجتمعات ولكن ليس بصورة مطلقة ومن هذه الزاوية تنبع أهمية كفاح الإنسان من أجل حريته ولهذا السبب بالذات احتفظ التاريخ بالمآثر البطولية لرواد الكفاح من أجل الديمقراطية عبر مراحله الطويلة واعتبروا بتضاحياتهم الجسورة ومواقفهم الباسلة رمزاً للإنسان الفذ الذي يخاطر بهدر حريته بل وحياته من أجل حرية المجتمع بأسره، وتبرز الأهمية الجوهرية لتلك المواقف من حيث أن أولئك الرواد أثاروا موضوع الحق الطبيعي للإنسان في حرية التفكير والرأي في وقت كانت مثل هذه الكلمات أثقل ما تكون على المسامع ولا تبدو مفهومة بقدر كاف لدى المجتمع الذي يناضلون من أجل تحريره، ولا يختلف إثنان في أن الحرية التي نشاهد ظلالها الوارف يخيم اليوم على كثير من بقاع الأرض مدينة إلى حد كبير لمواقف الرواد الأوائل للديمقراطية، ومن حقهم على البشرية أن تتذكر على الأقل ما صنعوا وأن تستلهم تراثهم العملاق في الكفاح من أجل الديمقراطية إذ لولا مواقفهم الشجاعة وكلماتهم المقاتلة ما كان للكلمة أن تكون حرة على الإطلاق.

أيبان محمد السامعي
Ayban Mohammed Al-Samei

في الحرية عملية طبيعية لازمته منذ قالها سقراط وتذكيرها ببعض نشأته الأولى، وليس ثمة إنسان يقبل التفريط بحريته مختاراً، بيد أن المفاهيم لمعنى الحرية لم تتبلور تاريخياً إلا في عصر الحضارة اليونانية التي شهدت تطوراً ملموساً في المجالات العلمية والفنية والفلسفية، وبذل الإنسان أولى محاولاته الجادة لفهم أسرار الكون وماهية الوجود الإنساني بأسره، وكان لابد للعلوم السياسية أن تزدهر هي أيضاً وأن تصبح معها حرية الإنسان في أن يقول ما يرى أنه الحقيقة مجالاً للصراع والإختلاف في الرأي ووسط هذا الزخم الحضاري المبكر ظهرت مشكلة (سقراط) وموقفه المغاير لآراء مجتمعه تجاه مسألة تعدد الآلهة فكان ذلك أول صراع علني يدور حول الحرية ويسجله التاريخ وهو معمد بالدم.

كانت جماهير أثينا تؤمن بتعدد الآلهة وتقدسها على كثرتها وتضفي على كل إله قدرة خارقة على صنع المعجزات وإلحاق الأذى بمن تشاء أن تعاقبه من بني البشر عن طريق التخصص الإلهي إن جاز التعبير فيوجد إله للجمال وآخر للحرب ومثله للبحر.. الخ، حسبما تحكي أساطير اليونان ولم يكن سقراط الرجل المتأمل وغير المهتم بأسرته وشئونه

الشخصية بقادر على تقبل تلك الأفكار السائدة في مجتمعه، المعتدلة منها والمتطرفة، لأنها في رأيه مجافية للمنطق وغير مبررة عقلياً، وكان لابد أن يتفرد ببعض الآراء التي أغضبت كل الأطراف وألبت الجميع ضده ومن بينها اعتقاده بوجود إله واحد وليس مجموعة آلهة ومن هذا أعتبر في نظرهم كافراً يستحق العقاب، وبأمر من خمسمائة قاض حكم عليه بالموت عن طريق تجرع السم إن لم يتراجع عن آرائه، وقد تكون السياسة أوجدت لنفسها بتلك التهمة سبيلاً للتخلص من سقراط، وليس هذا مجال التفصيل في هذا الأمر والشيء الأهم في هذا الشأن هو ما يمكن استخلاصه من عبر تتعلق بالموضوع الذي نحن بصدده ومن أكثرها أهمية ما يلي:

١- المغزى البالغ الدلالة لقناعة سقراط بصحة آرائه وإصراره على التمسك بها ويبدو أن الفيلسوف العجوز إختار بوعي تام تجرع السم ومغادرة الحياة بدلاً من التراجع، وإصراره على حقه في تدريس تلك الآراء لتلامذته بالصوت المسموع حتى يضرب المثل لمن بعده، وربما أنه كان يدرك سلفاً ببصيرته الثاقبة بأن التاريخ سوف ينصفه يوماً ما. وأحسب أن موت سقراط على ذلك النحو كان دفاعاً مجيداً عن الحرية وأثمن لها مما لو بقي حياً بضع سنوات أخرى.

ومن هنا ينبع ذلك الصدى الكبير لكلماته الأخيرة وهو يقول: «كلا مادام ضميري هذا الصوت الهادئ في قلبي الصغير يأمرني بأن أسير وأعلم الناس طريق العقل الصحيح، فإني سأو إلى تعليم الناس وأصرح لهم بما في عقلي بدون اعتبار النتائج».

٢- إن الأفكار التي تتجه صوب المستقبل وتساير التاريخ في مسيرته يستحيل أن تقهر حتى لو قتل من يحملها، ولذا فإن سقراط الذي مات مداناً من قبل الدولة والجمهور على السواء والذي أرغم تلامذته على الكف عن الدفاع عنه لم يبق كذلك إلى الأبد، إذ لم تمض سنوات عشر إلا وقد عاد تلامذة سقراط ومريدوه إلى تدريس أفكاره من جديد وتبادل المناقشات حولها في المنتديات العامة، وبصرف النظر عن آرائه العلمية التي مثلت خطوة إلى الخلف، فقد دخل التاريخ بوصفه المناضل الصلب من أجل الحرية وشهيدها الأول وهذا هو الباقي من سقراط: دفاع جسور عن حرية الضمير، وشجاعة في التعبير عن الحقيقة، ودرس بليغ في الكفاح من أجل الحرية، ولكن برغم ما تحقق للإنسان من حرية حتى الآن فإن المرء لا يستطيع منع نفسه من الإحساس بأن البشرية بعد ما يزيد على ألفي عام ما برحت بحاجة إلى

مرافعات حول الحرية مماثلة لتلك التي قالها سقراط تذكرها ببعض كلماته (ليس على الأرض إنسان له الحق في أن يملي على الآخر ما يجب أن يؤمن به أو تحرمه من حق) ومن الجدير ونحن نستعرض الموقف من الحرية للحضارة اليونانية أن نشير إلى أنه برغم حادثة استشهاد سقراط المأساوية فقد غلبت على المجتمع اليوناني روح التسامح بصورة عامة، ولعل ذلك من بين الأسباب الرئيسية لاستباق الحضارة اليونانية إلى شرف الريادة في مجال الفكر والعلوم المختلفة، لتصبح النواة المبكرة لحضارة العصر الراهن.

## مصير الحرية في ظل المسيحية

لم يكن المسيح نفسه سوى رمزاً من أجل الإخاء والتسامح بين بني البشر، ورفضاً قاطعاً لإدعاء التفرد واقتصار أي دعوة دينية على أمة دون أخرى، وجاءت دعوته في الأساس تصحيحاً لرسالة السماء التي حرفها أحبار اليهود من خلال تزييفهم للتورات كي تتلائم وادعاء كونهم شعب الله المختار.

وبرغم أن دعاة المسيحية قد ساروا بعد ذلك على هذا النهج

المتسامح فإنهم تعرضوا لأشد أنواع الاضطهاد والبطش والقسوة من قبل الدولة الرومانية حتى يكفوا عن التبشير بالدين الجديد، وزاد من غيظ حاكم روما كون شباب الدولة الرومانية تأثروا بدعوة المسيحية إلى النأي عن العنف وتقاعسوا عن الانضمام إلى الجيش فزاد الرومان من قمعهم للمسيحيين إلى حد إلقاء آلاف الجثث في الغابات أمام الوحوش الكاسرة لإلتهامها، ولم يتوقف ذلك الإضطهاد إلا بعد أن أصبحت النصرانية ديناً رسمياً للدولة الرومانية.

وبرهن التاريخ على أن المسلك المتسامح للديانة المسيحية عند ظهورها بالإضافة إلى التضحيات الصبورة التي قدمها أوائل دعاة الديانة الجديدة شكلت سبباً رئيسياً من أسباب انتشار المسيحية وتحولها من ديانة شرقية محدودة ومتفرعة عن الديانة اليهودية في القدس إلى ديانة ذات صيغة عالمية امتد تأثيرها إلى أوروبا ذاتها، وتبرهن وقائع التاريخ على أن الديانة المسيحية لم تغادر ميدان الديمقراطية وتهبط إلى التبني الفظ لمبدأ القسر ضد المخالفين في الرأي عن طريق ممارسة القمع أو تبريره إلا بعد أن انغمس الكهنة في شئون السلطة الدنيوية واحتكوا برجالات الدولة وصاروا حكاماً على وجه الاجمال فقد اتبعت الكنيسة المسيحية في البداية نهجاً

متسامحاً تجاه الحرية وحق الإبداع والبحث منذ ظهورها وحتى القرن الرابع الميلادي، فكانت تلك الفترة امتداداً لعصور ما قبل المسيحية. وعبر ما يزيد على الثمانية قرون ازدهرت العلوم والفنون والفلسفة والآداب المختلفة حتى كان القرن الرابع الميلادي الذي ولجت بعده أوروبا إلى عصر مظلم آخر كبتت خلاله الحريات وشمل العقم مختلف أوجه الحياة الإنسانية، ولم يكن ذلك سوى مؤشراً بالغ الدلالة إلى العصور التي تلت بعد ذلك، وهو ما اصطلح على تسميتها في التاريخ الأوروبي (بالعصور الوسطى) وما من شك في أن تلك الحقبة أعتبرت أكثر عهود أوروبا تخلفاً وهمجية وخلالها لجأت الكنيسة إلى ممارسة الإضطهاد ليس ضد عامة الناس واليهود وحسب بل وضد المسيحيين أنفسهم.

وبكلمة فإن المسيحية في العصور الوسطى تحولت من دعوة دينية تحض الإنسان على السمو فوق الرغبات (الشخصية المبتذلة) واحترام حرية الإنسان بوصفه إنساناً بصرف النظر عن عقيدته، تحولت إلى سلطة مذهبية جامدة لا تقبل رأياً ولا تطيق حتى مجرد سماع كلمتي: علم، وحرية، وكان الطابع العام المميز لممارسة الكنيسة، يتسم بالتبرير النظري لمسالك الطغاة، من الملوك والنبلاء، تجاه الشعوب

الصليبية، ذات الطابع الاستعماري، ضد المسلمين، وتوجت تلك المسيرة القمعية بإنشاء محاكم التفتيش الشهيرة، التي أعدمت حرقاً كل من كان يتهم (بالهرقطة) أو اعتناق ديناً مخالفاً. وبين من طالتهم تلك المحاكم بعض الذين برعوا في ميدان الاكتشافات العلمية، التي يتمتع الإنسان اليوم بمنجزاتها. بيد أن ما ينبغي لفت الإنتباه إليه، وما هو قمين بالتأمل، أن تلك المرحلة السوداء، التي عاشتها أوروبا، تحت نير العسف للملوك والنبلاء والكهنة، لم تستطع وقف قطار الحرية، بل لم تكن سوى السيل الذي سبق فجر عصر التنوير. ولقد كان من البديهي أن تنتفض المسيحية على نفسها وأن تنتهي الكثير من التعاليم، التي كانت تبدو فوق مستوى النقد أو المناقشة، بعد بروز مذهب جديد وبرغم الآلام التي خلقتها المذابح الرهيبة، التي جرت بين الكاثوليكية والبروستانتية الجديدة، فإن الأخيرة كانت إفرازاً طبيعياً لمرحلة الجمود الكنائسي في العصور الوسطى ورد فعل عنيف لنواقص الكنيسة (البابوية) واستهتارها بتعاليم المسيح، تجاه حرية الإنسان بالذات. ولئن كرست البروستانتينية عند ظهورها النهج الكاثوليكي في التعامل ضد مخالفيها في الرأي، فإنها مع ذلك شكلت من بين عوامل أخرى أحد الممهدات الضرورية

للمراحل التالية، على أكثر من صعيد، وعلى الأخص مجال حرية التفكير والقول، من حيث أنها أي (البروستانتية) أضعفت من هيبة البابا وسَخِرت، أيما سخرية، بمنح صكوك الغفران، واعترضت على الكثير من القيود التي وضعها الكهنة من تلقاء أنفسهم، ولا سيما بعد أن تمكن بعض زعماء المذهب الجديد من ترجمة الإنجيل إلى بعض لغات أوروبا غير اللاتينية، بحيث أصبح متاحاً للقراءة أمام السواد الأعظم من الشعوب المسيحية. وقد كانت تلك الخطوة عاملاً حاسماً في حد ذاتها، من حيث أنها أتاحت لجمهور المسيحية فرصة الإطلاع، دون عناء، على التزييف والتحريف، اللذين لحقا بالإنجيل، لأغراض دنيوية، وأديا بالضرورة إلى اختلاق مجموعة من التعاليم، التي لا صلة لها إطلاقا بالمنبع الأصلي للمسيحية المتسامحة.

وكما هو معروف، فقد حدثت جملة من التطورات الاقتصادية والاجتماعية، وتوصل العلماء إلى مجموعة من الإكتشافات العلمية المثيرة، ونزلت الفنون والآداب والفلسفة إلى ميدان النزال ضد الكنيسة وملوك أوروبا ونبلائها، وكانت تلك الإرهاصات الأولية لعصر التنوير القادم وهو ما سنشير إليه لاحقاً.

والمهم أنه في النهاية أفضت تلك التطورات في مجموعها إلى وقف المسيرة القمعية للكنيسة كلياً وحدت من إرهابها الفكري وطلت أوروبا بعدها على مرحلة جديدة انعتق خلالها إنسانها من ربقة الجهل والجمود وتحرر من قائمة المحرمات اللامحدودة التي فرضت عليه حقباً من الدهر وامتدت رياح التغيير لتشمل الكنيسة ذاتها ويمكننا استقراء ذلك التغيير الملفت للإنتباه من خلال نصين متعارضين للكنيسة خلال قرن من الزمن ففي عام ١٨٣٢م أصدرت الكنيسة البابوية منشوراً يشجب المطالبة بالحريات ويصف ذلك بالهذيان المجنون ويقول «إن القول بإطلاق حرية الضمير لكل إنسان وضمان هذه الحرية يمثل أشد أنواع الظلال خطورة وبشاعة. مثل هذا القول يشق طريقه كالعدوى إلى حرية مطلقة في الرأي ومن يدري فربما نسمع في الغد دعوة أخرى تنادي بحرية الصحافة، تلك الحرية الأشد وبالاً، الحرية الكريهة التي لا حد لفظاعتها» وكما حدث بعد ذلك فإن الشؤم الذي توقعه المنشور البابوي والمتمثل بحرية الصحافة قد أمسى حقيقة واقعة وربما بأسرع مما توقع فبينما كان المنشور البابوي التحذيري يتلى فإن القطار كان يمضي بسرعة العصر مخلفاً ذلك المنشور وكاتبه على قارعة الطريق يرقب بهلع قطار التاريخ وهو يغيب بعيداً في الأفق وسيكون من المفيد إمعان

النظر في مغزى الموقف المتغير للكنيسة بعد ذلك والذي أظهر براعة بعض زعمائها في التكيف مع التطورات الجديدة بل وتبريرها وشجب كل تحجر ديني.

ويتجلى ذلك في تصريح أحد كرادلة القصر البابوي حيث يقول: «ثمة ظلال آخر صادر عن حب سيء للحقيقة يحاول أناس عن طريقه تحت راية الحقيقة أن يفرضوا معتقداتهم على أناس آخرين متجاهلين عنصراً هاماً من عناصر الحقيقة لا يقل في جوهره عن أي عنصر آخر من عناصرها وهو حرية الإنسان وحرية الضمير الإنساني». وبعد فإن مجرد الإطلاع على هذين النصين المتباينين للكنيسة الكاثوليكية خلال مائة عام تقريباً يبين دون أدنى ريب أن التعاليم التي أوردتها الكنيسة في مراحل الجمود المذهبي من أجل جعل القمع لحرية الرأي مشروعاً غير ذات صلة في الواقع بروح المسيحية ونزعتها الإنسانية الأصيلة، وإلا فكيف يمكن لأحد كرادلة القصر البابوي تجاوز النص الأول والإتيان بعكسه بكل بساطة، وإذا كان ثمة شيء يمكن استخلاصه من استعراضنا المقتضب لمسيرة الحرية في عصر اليونان والمسيحية من بعد فليس سوى التأكيد على أن التوق إلى الحرية مسألة فطرية مرافقة للإنسان بوصفه مفكراً وناقلاً

وأن حاجته إليها تماماً تماثل حاجته إلى الطعام أو الشراب ولا يستطيع التخلي عن حقه في حرية الرأي والضمير إلا مكرهاً، وطالما اقتنع بشرعية ذلك الحق وضرورة الكفاح من أجله فإنه لابد بالغه.

## حرية التفكير في العصر الإسلامي

من الطبيعي وقد تناولنا الكفاح من أجل الحرية الإنسانية في العصرين اليوناني والمسيحي أن نتحدث ولو بشيء من الإيجاز عن هذه المسألة في ظل الحضارة العربية الإسلامية، ومن البديهي أن الحرية مرتبطة أرتباطاً عضوياً بتطور التفكير العقلاني في أي أمة من الأمم وانعكاساً حقيقياً لدرجة التطور الاجتماعي والاقتصادي الملموس في كل حقبة تاريخية بعينها، ولا بد من تناول تلك المسائل قبل التطرق إلى موضوع حرية الرأي والضمير في العصر العربي الإسلامي.

ليس هذا الأمر بجديد فقد دأب العديد من الكتاب والمؤرخون العرب المعاصرون على محاولة استقصاء تاريخ الحضارة الإسلامية وتحليلها بصورة واقعية واستخلاص الحقائق من ثنايا التاريخ بعد ازالة الركام الذي أستوجبته حاجة الحكام في العصور المختلفة لوضع تاريخ رسمي للتطورات

والأحداث يتوخى قبل كل شيء خدمة الدولة القائمة ولو عن طريق تزييف التاريخ ذاته، وليس من شك بأن الجهود التي قام بها أولئك الكتاب برغم ما جوبهوا به من الصد والاحباط قد أفادت الإنسان العربي إلى حد كبير من حيث أنها خدمة للحقيقة في حد ذاتها وابرازاً للجانب المشرق في التراث العربي الإسلامي وإجلاء للغموض والتشوش الذي أشاعه بعض المستشرقين الغربيين عن الحضارة الإسلامية من خلال تحليلاتهم المتسمة بالتعصب والانحياز، والأهم أن المحاولات التي بذلها المثقفون التقدميون العرب وغيرهم للتعامل مع التراث الإسلامي من منطلق نقدي قد أسهمت إلى حد كبير في خلق الأساس لفكر عربي إسلامي مكافح يناهض الاستعمار ويدحض نظريات الاستعلاء والنقاوة العرقية التي روج لها بعض المفكرين الأوروبيين في العصر الحاضر في محاولة عابثة لتبرير الغزوات والحروب الاستعمارية لبلدان الشرق وتجميل تلك الغزوات والحروب بوصفها عمل (حضاري) يستهدف إضفاء التمدين والعصرنة على الشرق المتخلف، وفي سياق ذلك التضليل النظري دأب أصحاب النظريات العرقية تلك على تكرار كذبتهم المعهودة التي تدعي انعدام التسامح في الإسلام بصورة مطلقة تجاه الرأي المخالف وحرية العقيدة واقتصار العلم والفلسفة على العقل الأوروبي وحده.

«إلا أن العرب جنس غير قابل بالفطرة لتلقي الفلسفة والعلوم والاشتغال بهما» غير أن المفكرين العقلانيين من الأوروبيين أنفسهم يثبتون نقيض ذلك تماماً ويعترفون دونما مواربة بعظمة الجهد الذي قام به المفكرون العرب حيال الفلسفة وعلوم الحياة المختلفة حفظاً وشرحاً وإضافة ملموسة ونجاحهم الملحوظ في أن يكونوا جسراً إيجابياً ومبدعاً للوصل بين الفلسفة اليونانية التي نشأت قبل الميلاد وبين (بيكون وديكارت وسبينوزا) من فلاسفة عصر النهضة الأوروبية الحديثة، أن العرب لم يحتفظوا بالفلسفة اليونانية طيلة قرون عديدة ويجنبوها خطر التعرض للاتلاف والضياع في عصور أوروبا المظلمة فحسب بل زادوها توضيحاً وأثروها بنظريات جديدة من خلال الكندي وابن سيناء وابن رشد وغيرهم من عمالقة الفكر الإسلامي الذين تمكنوا من إيصال الفلسفة والعلوم إلى أعلام الفكر في أوروبا المعاصرة وقد أضحت يافعة وتخطت مرحلة الطفولة، وما من شك بأن الحضارة العربية الإسلامية لو لم تتعرض للانتكاس والتراجع في بعض الفترات وتتعرض معها حرية الضمير والرأي للكبت والقيود لما انحط المجتمع العربي وركد، ولما خلي الميدان في العصر الحاضر أمام الفكر الأوروبي يسوح خلاله بمفرده في ظل غياب شبه كامل للفكر العربي

الإسلامي. ومن هذه الزاوية تبرز أهمية الدور الفذ الذي لعبه المفكرون العرب المسلمون في العصور المختلفة حيال الفكر الإنساني سواء من حيث أسهامهم الفلسفي والعلمي أو دفاعهم المجيد عن الحرية، والتاريخ الإنساني حافل بأسماء العديد من العمالقة والمفكرين العرب الذين تنوعت إبداعاتهم على أكثر من صعيد.

## مراحل تطور التفكير العقلاني

## في العصر العربي الإسلامي

ليس من شك أن العرب كانوا يمتلكون قبل الإسلام قدراً من الحضارة والمدنية في مجال البناء والإعمار والزراعة كما ازدهرت التجارة في فترات مختلفة على الأخص مناطق جنوب الجزيرة العربية (اليمن) التي شهدت فترات من الازدهار الحضاري منذ آلاف السنين ظلت آثارها حتى اليوم، ولابد وأن يكون ذلك شاهداً على الإبداع والعقلانية.

غير أن الدعوة الإسلامية شكلت منعطفاً تاريخياً زاخراً بالحيوية والتنوع الثقافي والعلمي ليس بالنسبة للعرب

وحسب بل لكل الأمم التي انضوت تحت لواء الإسلام، ومن خلال التفاعل المستمر والاندماج التام بين ثقافات تلك الأمم وخصائصها المتنوعة التي انصبت في قالب الحضارة العربية الإسلامية لتشكل بروافدها المتعددة هذا التراث الحضاري المرموق الذي ما برح نهره يتدفق حتى اليوم، ونشهد أمام أعيننا آخر موجاته تكتسح امبراطوراً متغطرساً ومغروراً في ايران، وتقف كما ينبغي للمسلم الحقيقي أن يفعل ضد الامبريالية والرجعية متحدة مع الشعب بصورة عضوية، وليس هذا الذي نشهده في إيران من مواقف صلبة ضد الطغيان والاستعمار، ومع الحرية سوى امتداد حي ومتطور لكفاح المناضلين الأوائل من أجل الحرية واستلهاماً لتراثهم العقلاني ويثبت التاريخ بأن الأحداث الكبرى التي تلت وفاة النبي (ص) قد شحذت عقول المفكرين العرب المسلمين وحفزتهم على استعمال العقل وابتداع النظريات السياسية المختلفة سيما وأن النصوص لم تكن تعالج تلك الأحداث، بكاملها، ولعل من أهمها مؤتمر (السقيفة) حول الخلافة ومجابهة حروب الردة ومبايعة علي للخلافة بعد مقتل عثمان، غير أن أشد تلك الأحداث تأثيراً على الفكر العربي الإسلامي وأكثرها الحاحاً عليه لارتياد مجالات التفكير والاستنباط المنطقي كانت حرب يوم الجمل التي قادتها عائشة ومعها

طلحة والزبير في مواجهة علي بن أبي طالب بعد مبايعتهم له وحرب صفين بين علي ومعاوية ما نتج عنها من تثبيت للدولة الأموية في الشام بقيادة معاوية بن أبي سفيان بعد خدعة التحكيم الشهيرة وبروز الخوارج كحزب سياسي رافض ومتصلب، ثم ظهور وانتشار الطوائف الإسلامية المختلفة كالشيعة والمرجئة والمعتزلة وغيرهم، ولا شك أن السبب الرئيسي الذي دفع بتلك التطورات والصراعات إلى السطح يكمن في التغيرات الاجتماعية العميقة التي أحدثها العصر الإسلامي الجديد في بنيان المجتمع وتفكيره من خلال الفتوحات للعديد من البلدان خارج الجزيرة العربية، وبروز التفاوت الاجتماعي في المجتمع الإسلامي الناشىء كأوضح ما يكون، الأمر الذي أدى إلى انتشار التمردات والانتفاضات الشعبية واحتدام الصراع من أجل السلطة السياسية وإن ظلت ترتدي طابعاً دينياً، وطرح مسألة الخلافة والفصل في الأحداث التي رافقت مرحلة ما بعد النبي (ص) على بساط البحث. وحينئذ برزت الدعوة إلى الاجتهاد بين صفوف أئمة المسلمين بعد أن تعذر الإجماع فيما بينهم تجاه تفسير المواقف والأحداث وتصنيف قادتها الذين كانوا إما من الصحابة أو التابعين.

وفي هذه الأرضية بالذات نبتت البذرة الأولى للتفكير العقلاني الذي يعتمد على المحاكمات العقلية والاستدلال المنطقي لمجابهة الأحداث التي يطرحها المجتمع المضطرب كل يوم، وكان أبرز الممثلين لذلك النهج هم المعتزلة الذين كانوا أول طائفة إسلامية تمتلك نزوعاً عقلياً وتدافع عن الإسلام ضد الهجمات المعادية له عبر الحجج المدعمة منطقياً والمقبولة عقلياً، ولعل أهم ابداعات المعتزلة هي اثباتهم كون الإنسان مختاراً يقوم بأفعاله بإرادته المطلقة، وبصرف النظر عن ما لحق بفكر المعتزلة من تشويه واتلاف مخطوطاتهم بصورة منتظمة، فقد كانوا أول طائفة إسلامية تقود موكب العقل العربي صوب اقتحام الممنوعات ووضع اللبنة الأولى في بنيان التفكير العربي الإسلامي الأكثر اشراقاً والأقدر على مخاطبة العقل دون العاطفة، وما برح وميض الفكر المعتزلي الذي أعلى سلطان العقل يلقي بتأثيره حتى اليوم.

وبرغم ضيق الأفق والتناقض الذي اتسم بهما تفكير الخوارج فإن تلك الفئة ضربت المثل في القدرة على التنظيم والجمع بين النظرية والتطبيق والإصرار على تحقيق أفكارهم بعزم يثير الدهشة، ومن الواضح أن الاهتمامات الفلسفية للخوارج كانت محدودة على نقيض المعتزلة فقد انصب

جهدهم الرئيسي على تطبيق النصوص الإسلامية كما يرونها والاهتمام بالشئون السياسية، ومن بين ما ابدعوا في هذا المجال طرحهم لجواز الخروج على الحاكم غير العادل ووجوب مقابلته، ومما يلفت الانتباه بهذا الصدد أن الخوارج بفكرتهم تلك سبقوا بمئات السنين الفيلسوف الإنجليزي (جون لوك) الذي برر لشعب انجلترا ثورته على الملك شارل الأول في القرن السابع عشر ولم يقبلوا قط التخلي عن معتقداتهم برغم حروب الإبادة المتتالية التي شنت على معاقلهم.

## العصر العباسي

لم يطرأ أي اختلاف جوهري بين السلطتين الأموية والعباسية التي وصلت إلى سدة الحكم تحت راية التشيع لآل البيت والانتقام لهم من الاستقراطية الأموية مستثمرة بذلك، المعارضة القوية والانتفاضات المتوالية التي قادها الشيعة ضد الأمويين، غير أنه في مجال الفكر والعلوم لابد من القول بأن العصر العباسي مثل مرحلة جديدة وكانت بمثابة محطة انتقالية في سلم التفكير والإبداع العربي الإسلامي، ولقد كان

من أعظم إنجازات العصر العباسي وأكثرها جراءة على الإطلاق فتح الباب على مصراعيه أمام الترجمة من اللغات الأجنبية وبالذات اليونانية والفارسية إلى العربية بل واعتبار الترجمة مهمة رئيسية تضطلع بها الدولة ففي بغداد بالذات أسست دار الحكمة واستعان العباسيون بمجموعة موهوبة من المسيحيين للنهوض بعملية الترجمة للفلسفة والعلوم، ولقد أدت تلك المجموعة المهمة المناطة بها بنشاط ومثابرة تستحقان الاعجاب، وهو ما أحدث انقلاباً فكرياً غير مسبوق في مجالات العلم والفلسفة والآداب وانتقل بالعقل العربي الإسلامي إلى طور آخر أكثر ارتقاءً وتطوراً فمهدت بذلك الطريق لظهور جيل جديد من الفلاسفة العرب واحتدم الحوار والجدل حول مسائل لم يسمح بالنقاش حولها من قبل وكان من أول ثمار ذلك الازدهار الفكري رسائل اخوان الصفاء التي اشتملت على فروع المعرفة المختلفة بصرف النظر عن رؤيتهم الخاطئة تجاه السحر واعتباره علماً، ولقد كانوا أول من قال (إذا لم يكن الشيء معقولاً فلا يمكن البرهان عليه) وتلاهم ظهور جيل من عمالقة الفكر العربي الإسلامي الذي اتسمت نظرياتهم بالعمق والشمول أكثر من ذي قبل مثل الكندي والفارابي وابن سيناء وابن رشد وابن خلدون بعد ذلك، وحتى علوم اللغة اكتسبت في ذلك الحين مسحة عقلية

وتوسعت وظائفها وتعددت فروعها لتشمل المنطق ومجالات أخرى وانطوى الإنتاج الأدبي لبعض العباقرة كالجاحظ والمعري على صيغة فلسفية، وبلغت الفلسفة العربية الإسلامية ذروتها بظهور الغزالي الذي مثل بذكائه وعلمه قمة لا تضاهي في شموخها، غير أن تلك القمة كانت هي نفسها التي تجمد عندها الفكر العربي الإسلامي واضمى ماؤه السنابل وانحدرت بذلك الفلسفة العربية الإسلامية من أعلى القمة التي بلغتها إلى أدنى درجاتها، وبرغم المحاولات الفذة، لابن رشد في رد الاعتبار للفلسفة العربية الإسلامية وتشييد أركانها من جديد فإن هجوم الغزالي على التفلسف واعتبار الفلسفة تهافتاً أصاب منها مقتلاً ووضع الأساس النظري لتبرير اضطهاد المفكرين العرب المسلمين بعد ذلك على أيدي الحكام، ولا شك أن ذلك لم يكن هو السبب الوحيد ولم يكن سوى التعبير الثقافي عن طبيعة المرحلة التي تمر بها الحضارة العربية الإسلامية عقب التغيرات السياسية والاجتماعية التي ترتبت على الانقسامات والحروب الداخلية في الامبراطورية الإسلامية والغزوات الخارجية التي تعرضت لها ودشنت بذلك رحلة الانحطاط اللاحق التي امتد ليلها ليشمل بعد ذلك مرحلة الاحتلال التركي لبعض البلدان العربية والاستعمار الغربي من بعده الذي كرس بصورة تلقائية

مظاهر الانحطاط السابق. ولم يكن من نتيجة ذلك سوى أن تراجع كل فكر متحرر وضاع كل نزوع عقلاني، وحتى الفنون والآداب أصيبت بالجفاف وأصبح الشعر مجرد نظم مجلل بالصنعة البديعية لا يحتوي على أي مضمون تقدمي، وكان من البديهي في هذه الحالة أن تسود الأفكار الاقطاعية المناهضة للعقل ويختفي الإبداع بصورة تامة. ولقد استمرت الحالة تلك إلى أن ظهر الافغاني في القرن التاسع عشر ومن بعده تلميذه محمد عبده اللذين قاما بجهد متميز لانتشال التراث العربي الإسلامي من الجمود وفكه من أسر الماضي من خلال منهجهم النقدي الذي تجاوز المفاهيم السلفية واستهدف أساساً تحويل الفكر العربي الإسلامي إلى فكر مكافح ينهض لمقارعة المطامع الاستعمارية الغربية ولقد أمكن للعالمين أن يفتحا الباب من جديد للعمل من أجل استخراج الجوانب المشرقة في تراث الحضارة العربية الإسلامية وتمهيد الدرب أمام موكب العقل العربي الإسلامي ليشق طريقه من جديد، وحسبنا أن نعرف أن محمد عبده هو الذي دعا إلى تعليم المرأة وانكر على المتزمتين ادعاءاتهم بتحريم النحت والتصوير بل وأطلق العنان لقلمه في الرد على المستشرقين الذين نفوا وجود التسامح في الإسلام وقارعهم الحجة بالحجة بمنطق يقبله العصر.

وفي ضوء الحضارة العربية الإسلامية في المسيرة العلمية والفلسفية للإنسانية التي تم التنويه إلى معالمها الرئيسية في الفقرات السابقة يبقى التساؤل قائماً حول الحرية التي كان يتمتع بها المفكرون في ظل الدولة العربية الإسلامية عبر تاريخها ولا شك بأن أي ادعاء بانتفاء التسامح وانعدام الحرية بصورة مطلقة إنما يتجافى مع الحقيقة وينأى بصاحبه عن الموضوعية، والحقيقة التي لا جدال فيها أن الفكر العربي الإسلامي مر بمراحل مختلفة شهد في بعضها ازدهاراً وحرية وانتج فكراً عقلانياً مستنيراً سبقت الإشارة إليه، وشهد كذلك مراحل أخرى ابتعد بعض الحكام خلالها عن جوهر الإسلام المتسامح فأمعنوا في الاضطهاد والقمع الموجه ضد خصومهم السياسيين وقيدوا حرية التفكير والإبداع إلى حد كبير. وبصدد التسامح في عصر الإسلام فإن الإمام محمد عبده قد أوضح بصورة مسهبة روح الإسلام الحقيقية التي أملت على الخلفاء الإسلاميين منح الحماية والرعاية التامة لبعض الطوائف غير الإسلامية وسنجد في سيرة الخلفاء الراشدين أعظم برهان على ذلك وحتى المسلمين بأنفسهم فإن أحد منهم لم يؤخذ في صدر الإسلام بجريرة رأيه المخالف، ومما يلفت الانتباه ذلك الحوار الصبور والمثابر الذي أداره علي بن أبي طالب مع الخوارج برغم تكفيرهم له

وخروجهم عن طاعته فلم يقاتلهم إلا بعد لجوئهم إلى السلاح، وحرص أن يقول لأبنائه قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة بعد أن طعنه عبدالرحمن بن ملجم (إذا مت فاقتلوه ولا تمثلوا به). ترى أي تسامح هذا. لم يعتقل أقاربه ولم يعلن حالة الطوارئ أو تشكيل محكمة لا من الدولة رغم أن دولة الخلافة انهارت بعد ذلك حقاً.

ولكن حينما تحولت الخلافة الإسلامية على يد بني أمية إلى ملك وولاية للعهد تضاءل التسامح تجاه المعارضين وبرزت الحاجة إلى اخضاع المفكرين للمذهب السياسي للدولة وتبرير قمعهم.

وبرغم النهوض العلمي الذي حدث في العصر العباسي فإن بعض مراحله تبدو موشحة بالسواد وأبرز قضية قمع حدثت آنذاك تجاه المخالفين بالرأي هي ما تعرض له الإمام أحمد بن حنبل فيما سمي بمحنة خلق القرآن، فقد تعرض لأشد أنواع التعذيب قسوة كي يتراجع عن رأيه القائل بقدم القرآن ويأخذ برأي المعتزلة الذي كان عقيدة (المأمون والمعتصم) والذي يرى أن القرآن مخلوق، وبصرف النظر عن تفاصيل تلك المسألة وخلفياتها الأصولية، ومدى صحة هذا الرأي أو ذاك حولها فإن ابن حنبل أظهر صلابة غير عادية في الدفاع عن

رأيه وصمد حتى النهاية فلم يهن ولم يتراجع عما اعتقد أنه الحقيقة ومات ولما يبراء جسمه من آثار التعذيب ومن غرائب الصدف بهذا الشأن أن (الواثق) ابن المعتصم تولى الخلافة بعد أبيه واعتنق رأياً مخالفاً للمعتزلة وأمر بإعدام أحد علمائهم بعد أن رفض التخلي عن مذهب المعتزلة القائل بخلق القرآن وهكذا نرى برغم التباين في الرأي بين الرجلين اللذين تعرضا للاضطهاد فإنهما خاضا معركة مشتركة من أجل الحرية وبرغم أن المفكرين في العصر الإسلامي لم يتعرضوا لمثل الإرهاب والقمع الذي تعرض له المفكرون في ظل المسيحيين فإن هناك حالات كثيرة من الاضطهاد قتل خلالها بعض العلماء أو أُحرقت كتبهم بسبب اتيانهم بآراء دينية أو علمية مخالفة، ومن أبرزها الأمر بإعدام الحلاج لتصوفه ومع كل تلك الحوادث التي لم يكن سببها سوى خوف الحاكمين من التأثير الفكري المضاد للمعارضة فإن النهج العام للدولة العربية الإسلامية كان يتسم بالتسامح وتجنب الإكراه تجاه الرأي المخالف.

## عصر التنوير الأوروبي

## وتبلور الحرية بمعناها الليبرالي

سبق أن أوضحنا ما انتهت إليه حرية الإنسان في العصور الوسطى وعلى الأخص إبان محاكم التفتيش الرهيبة وأحكامها القاسية التي بلغت حد الإعدام حرقاً لأي متهم يشك في مخالفته لتعاليم الآباء أو لمجرد التردد من قبول بعض (الثوابت الفكرية) لبعض فلاسفة اليونان القدماء، وبالتحديد (أرسطو) برغم أنه ظهر قبل المسيحية بعدة قرون.

بيد أن رغبة حكام أوروبا وكهنتها الذين اقتضت مصالحهم قفل أي نافذة للتفكير والمناقشة أضفوا على بعض مقولات أرسطو صفة الخلود ورفعوها فوق مستوى المناقشة حتى تظل أوروبا والعالم راكدة بصورة أزلية، وكان عليهم والأمر كذلك أن يثبتوا بعض فرضيات أرسطو حيال الكون والإنسان، ويدافعون عنها مكفرين كل شخص أدت به بديهيات العقل إلى مناقشة تلك الفرضيات ونقدها، وكما هو معروف فإن محاكم التفتيش طاردت العديد من الناس

العاديين والمفكرين الذين أعتبروا لسبب أو لآخر مخالفين للرأي الرسمي سواء على الصعيد الفلسفي أو الديني، غير أن جذوة الحرية لم تخبُ كلياً رغم كل ذلك كما وأن التراث العلمي والفلسفي الذي خلفه اليونان ومن بعدهم عرب الأندلس واصل رحلته المرهقة شاقاً طريقه صوب أوروبا المعاصرة برغم كل الإرهاب والظلام الذي خيم على الأجواء الأوروبية في العصور الوسطى.

## مقدمات عصر النهضة الأوروبية

من الصعب على المرء موضوعياً أن يختار سبباً وحيداً للنهضة الأوروبية المعاصرة دون أن يكون قد وقع في خطأ نظري وتاريخي فادح، ولأن كانت عوامل الصراع الاجتماعي والعوامل المادية لعقل الإنسان ونتاج عمله كانت من بين الأسباب الرئيسية التي انتقلت بالبشرية من حقبة تاريخية إلى أخرى عبر العصور من سياق التطور التاريخي للإنسانية بأجمعها وانطبقت كذلك على أوروبا وبصورة دقيقة لاسباب ليس هنا مجال الاسهاب فيها فإن هناك عوامل أخرى جغرافية ودينية وفكرية أسهمت مجتمعة في الدفع بأوروبا

إلى عصر النهضة في مقدمة العالم كله، وكما أسلفنا فإن خيط الفلسفة والعلوم لم ينقطع كلياً منذ أن كان العرب في الأندلس ليصل في القرن الثالث عشر إلى يد عالم انجليزي تجريبي بذل أول محاولاته كما يقول بعض المؤرخين في صنع البارود وتنبأ بآفاق التطور العلمي اللاحق في مجال البحار وعلومها والفلك وكان للعامل الخارجي دوراً مؤثراً بهذا الصدد، إذ أن احتلال الأتراك للقسطنطينية وسد طرق التجارة لأوروبا مع الشرق من خلال السيطرة على مصر وسوريا مثلاً تجده ملحوظاً لمجتمع أوروبا المسيحي الذي بادر بعض مفكريه الدينيين إلى احياء الترجمة للانجيل والعلوم المختلفة من اليونانية والعبرانية إلى بعض اللغات الأوروبية المعاصرة في جو جديد من التسامح الديني بعد أن هرب الرهبان من القسطنطينية عقب احتلالها، وأتجه أوروبيون آخرون بتشجيع رسمي أحياناً إلى بلورة واستخدام ما بحوزتهم من المعارف العلمية الأولية للبحث عن منافذ بحرية جديدة بعيدة عن النفوذ التركي وحينها تمكن (كولومبس) من اكتشاف قارة أمريكا على إثر رحلة بحرية شاقة وبعده تمكن (فاسكوديجاما) من الوصول إلى جزر الهند الغربية فكان لذلك العمل العبقري الذي تحقق بالصدفة تأثيراً بالغاً على مجالات الحياة المختلفة، فقد شجع على

تطوير مناهج البحث العلمي وفتح أمام أوروبا آفاقاً رحبة للنشاط الاقتصادي وأثر إلى هذا الحد أو ذاك على تفكير الكنيسة المتمسك بدون دليل في بعض الثوابت الافتراضية القديمة وما من مفكراً حتى ولو كان راهباً قال بوجود عالم آخر وراء المحيط قبل اكتشاف أمريكا فعلياً لتعرض للتكفير والعقاب لتجرؤه على القول بشئ لم يقله المسيح من قبل، وفي ظل المناخ الجديد لمح مفكر يدعى (نيقولا كأسا) من شكوك خفية حيال مقولة (أرسطو طاليس) القائلة بأن الأرض مركز للكون، طبعاً لم يعاقب ذلك الرجل على ظنونه لعدم التنبه ربما إلى مدلولاتها ولكنه كان قد ترك مع ذلك بذرة نبتت وترعرعت فيما بعد على أيدي علماء آخرين وفي نهاية القرن الخامس عشر بالذات أضحى الشك والتجريب تجاه الفرضيات العلمية والفلسفية السابقة أمراً مقبولاً وبدأت نزعة تحرر طفولتها الأولى، ونجح عالم الماني في منتصف القرن الخامس عشر من صنع أول حروف متحركة للمطبعة الحديثة التي أستقامت بعد ذلك على قدميها في القرن السادس عشر وفتحت بذلك آفاقاً واسعة أمام التيار الصاعد للعلوم والفلسفة، ورغم مقاومة الكنيسة والملوك لذلك الاكتشاف المثير بل وانزال العقاب بالناشرين والمؤلفين والآلة ذاتها إلا أن رياح التغيير كانت تهب من كل صوب على تحول يقاوم بما

في ذلك نشوء تيارات الإصلاح الديني بمذاهبه وأشكاله المختلفة الذي سبق تفصيله في الحلقات السابقة وقد بادر العديد من المفكرين والأدباء إلى اشهار أسلحتهم الفكرية دفاعاً عن ذلك الاكتشاف الجديد الذي لمسوا ثماره من خلال نزول سيل من المطبوعات إلى الجمهور الذي دافع بدوره عن المطبعة وقال أحد أدباء أنجلترا حينذاك إذا كان تيار الحقيقة (لا يتدفق ماؤه ويسير قدماً فإنه يأسن ويستحيل بركة كدرة قوامها التجانس والتقليد وكان لابد لذلك التطور العلمي أن يفضي إلى ازدهار الثقافة بصورة شاملة وأن يحدث قفزة نوعية هائلة في كل حقل من حقولها وإحداث تفاعل وتأثير متبادل بين كل فروع المعرفة والدفع بعجلة التطور إلى الأمام، ففي مجال الأدب على سبيل المثال استأنفت أوروبا مرحلة جديدة من الابداع والإنتاج الغزير فترجمت روائع الأدب اليوناني وغيره وطفقت أوروبا تنتج أجيالاً تلو أخرى من عمالقة الأدب فظهر شكسبير بروائعه المسرحية ودانتي بإنتاجاته الأدبية من خلال المظهر وغيره التي ما برحت معاصرة حتى اليوم ثم (بلزاك) وغوته وشارل ديكنز وبيتهوفن.. الخ. وكان لكل هؤلاء وعشرات غيرهم دور فعال في مجال الدفع بالنهضة الأوروبية إلى الأمام وعلى الأخص في مجال الدفاع عن الحرية وبمعناها الواسع، وكم هو مبدع

وشجاع ذلك الذي قال وقتئذ (أعطني الحرية أن أعرف وأن أقول وأن أناقش كما يملي على ضميري قبل أن تعطيني أي حرية أخرى) وبصرف النظر عن المقاومة التي أبداها التيار السلفي والحكام في أوروبا لتيار التطور المتنامي، فإن المسيرة التاريخية للحضارة الأوروبية المعاصرة سارت حثيثاً إلى الأمام وغدت ترتكز أكثر وأكثر على رافعات متعددة أبرزها احتدام الصراع الاجتماعي ضد الاقطاع فكراً وعلاقة وأسلوباً للإنتاج وتوجت تلك الحقبة التاريخية من القرن السابع عشر بحدوث تحول نوعي على صعيد العلوم والفلسفة على أيدي جيل من المفكرين العباقرة من أمثال (فرنسيس بيكون) الذي طور نظرية التجريب في المجال العلمي، والفيلسوف الفرنسي ديكارت الذي أتبع نهج الشك سبيلاً إلى معرفة الحقيقة وساهم (سبينوزا) في أغناء حقل المعرفة من خلال أبحاثه في المجالات المختلفة وعلى الأخص مجال العلوم السياسية برغم المعاناة الشديدة التي سببتها له تلك الأعمال العدائية من قبل طائفته ومن بينها المقاطعة وارغامه على العزل واستصدار قرار من الكنيس اليهودي بحرمانه بوصفه مارقاً عن الديانة اليهودية وأدى كل ذلك إلى وفاته وهو في عمر مبكر، ولأن بلغت العلوم والفلسفة مبلغها ذاك لدى فلاسفة القرن السابع عشر فإنما تم ذلك بصعوبات

بالغة وبمعاناه لا حدود لهـا، إذ أن الحرية لم يفك أسرها بعد. وكان على النهضة الأوروبية أن تقدم بعض أفذاذها قرباناً من أجل الحرية وحق الإنسان الطبيعي في التفكير والمناقشة لكل الظواهر التي يدعوه عقله إلى مناقشتها وقد برع أحد المفكرين الإيطاليين ويدعـى (بروتو) في الدفـاع عن الحـرية بصـورة تبعث على الاحتـرام حينما تقدم نحو المحرقـة التي أقيمت له في أحد ميـادين روما بثبات يقل نظيره وبقدم راسـخة تماماً بعد الحكم عليه بالموت حـرقاً من قبل محاكم التفـتيش بسبب آرائه العلمية والدينية واستهانته لنظريات (كوبرنكس) الفلكية وبعده بفترة زمنية قـصيرة أرغم العالم الفلكي (جاليلو) على التـخلي عن آرائه العلميـة العـبقـرية حيـال النظام الشمـسي وطبـيعتـه ومركـز الأرض منه، تحت وطأة التـهديد بمصـير مشـابه لمصيـر سلفه برونو ولعل أعظم المعـاني التي تقدمـها دروس أولئك المكافـحين من أجل الحـرية تكمن فـي النتـائج المدهشـة التي ترتـبت على تلك الأحـداث في المجـرى العـام لكفـاح الإنسان من أجل إزالة الأغـلال التي وضعـها لنفـسه، فبـرونو الذي أعدم حرقـاً وسط تصفيـق الجماهيـر الإيطالية وهتافها بعدالة محاكم التـفتيش هو نفسه الذي أقيم له نصب تذكـاري في نفس المكان الذي أحـرق فـيه بعـد مـضي ثلاثة قـرون فـقط وسط هتـافـات الجمـاهيـر الواعـيـة هذه المرة

واشادتها بأفكار برونو وشجاعته، والنظريات الفلكية التي أرغم بعض مكتشفيها على دحضها تحت نير القمع هي نفسها التي مثلت اللبنة الأولى لعلوم الفضاء المذهلة التي وصل بها الإنسان إلى سطح القمر وتمكن من التقاط صور تلفزيونية لكوكب زحل عن قرب بعد رحلة قطعت خلالها مركبة الفضاء التي صنعها الإنسان مسافة ألف مليون كيلو متر في رحلة لم تتوقف وما برحت تجوب خلال الفضاء متأهبة لمغادرة نظامنا الشمسي إلى مجرة شمسية أخرى مجهولة في رحلة لا نهائية وتلك هي الحصيلة العملية لكفاح الإنسان من أجل الحرية وتحرير العقل من قيوده.

## إقتراب عصر الثورة البرجوازية

في نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الذي يليه بدأت أوروبا بفعل التكدس الكمي لعوامل التطور الموضوعي التي سبق الإشارة إليها وهي تنتقل بسرعة إلى حقبة تاريخية جديدة برزت خلالها بوادر الانقلاب الاجتماعي القادم، فقد تطورت وسائل الإنتاج الاجتماعي بصورة كيفية متخطية علاقات الإنتاج الاقطاعية ومتجاوزة مرحلة التعاون الصناعي

البسيط (المينافكتورة) بإتجاه تمركز وسائل الإنتاج الصناعي في ورشات كبرى تنتج وفرة من السلع على نحو يتعدى حاجة الاستهلاك المحلي إلى التصدير الخارجي الذي أفضى بالضرورة إلى قيام حركة تجارية كبيرة ونشطة. ومن جانب آخر تدفع علاقات الإنتاج الإقطاعية باستمرار وتصادمها مع البنيان الاقتصادي الصناعي الجديد إلى استعار النضال ضد الاقطاع المتهالك وعلاقته البالية من كل الفلاحين الطامحين للانعتاق من ربقة العلاقات الاقطاعية بل ومن قبل البرجوازية الصاعدة والاستيلاء على السلطة الحواجز التي أقامها الاقطاعيون في وجه حركة التجارة الجديدة ورأت بذلك في مؤسسات الدولة الاقطاعية السياسية والحقوقية عائقاً أمام الحرية التي تشهدها في مجال التصنيع والتسويق والمنافسة برغم الوهن الذي لحق بتلك المؤسسات وتراجعها يوماً بعد آخر أمام الدولاب الصناعي الجبار الذي تديره البرجوازية التي أفرزت بالضرورة ايديولوجية تقدمية جديدة تنطوي على أخلاق وعادات وأفكار من نوع آخر فلم يكن أمام الطبقة الجديدة هذه التي تتسم بالحيوية والنشاط والعقلانية سوى التربع على عرش المعارضة الجديدة لقيادة الطبقات والفئات الاجتماعية الأخرى والانخراط في غمار كفاح دائب ومثابر يرمي قبل كل شيء إلى الاستيلاء على السلطة السياسية

وإخراج الاقطاع من شرح السياسة كلياً وإلقائه في متحف العاديات بوصفه طبقة آيلة للسقوط تاريخياً ووسط ذلك التطور الاجتماعي الهائل الذي يزخر بالتناقضات الحادة أنتقل المجتمع الأوروبي أو الفرنسي بالذات بالتعبيرات الفكرية للصراع إلى طور آخر بفعل التناقض الذي شكل (الرافعة) الرئيسية لكل التقدم الفكري الجديد وكان من البديهي أن تخلق ذلك المجتمع الصاخب المفعم بالتناقض الممثلون الجدد للطبقات الصاعدة على الصعيد الثقافي بصورة عامة ليمكنهم من التمثيل التام والدقيق لقيم المجتمع الجديد القادم وأنوامية وفي هذا السياق برزت إلى المسرح مجموعة المفكرين العقلانيين في أنحاء مختلفة من أوروبا، وفي فرنسا بالذات لمعت مجموعة من الاسماء المتميزة بنشاطها الفكري المتقدة حماساً تخوض غمار النضال ضد القيم الفكرية المتخلفة التي ما برحت سائدة مبتدئين قبل كل شيء بالكفاح في البنيان القومي للمجتمع من أجل إطلاق الحرية للإنسان بمعناها المسئول والشمولي حتى يستطيع العقل الذي يملكه بني البشر أن يؤدي وظيفته بصورة تامة ودونما قيود، بحيث يغدو حكماً في كل شيء كما هو معروف فقد كان رأس العقلانيين الفرنسيين كل من ديدرو، وفولتير، وروسو، الذين وجهوا أسلحتهم الفكرية صوب المجتمع القديم وتناولوا

بنيانه الاقتصادي والايديولوجي بالنقد اللاذع، وعلى الأخص مؤسساته الايديولوجية والسياسية المركزية، الأديرة والبلاطات الملكية، كان أول الأمر في نظر قسم من المجتمع بأن (أولئك الرجال العظام الذين هيؤوا أذهان البشر في فرنسا من أجل الثورة المقبلة كانوا أنفسهم ثوريين متطرفين وكانوا يقدحون بأي سلطة خارجية من أي نوع كان، تعاليم الكنيسة، العالم الطبيعي، والمجتمع والمؤسسات السياسية كل شيء قد أخضع للنقد الذي لا ينبغي على كل حال أن يبرر وجوده أمام محكمة العقل (ويكف عن الوجود) هكذا بدأ العقلانيون ثورتهم المجيدة.

## كفاح فولتير من أجل الحرية والتسهيلات للثورة الفرنسية

يجمع معظم المؤرخين لتلك الحقبة من التاريخ الفرنسي بأن فولتير اضطلع بدور خاص واستثنائي في المعركة الكبرى والحاسمة من أجل الحرية وقد استثمر موهبته الأدبية والسياسية إلى أقصى حد لتأليف عشرات من الكتب الأدبية

والسياسية التي تصب جميعها في مجرى الدفاع عن حق الإنسان الطبيعي في الاعتقاد والتعبير كما يشاء ورفض بقوة أي ادعاء لأي مؤسسة كانت بوجود سلطة مزعومة لها على ضمائر الناس وعقولهم وعلى عكس بعض المفكرين لم تقف جهوده عند حد الدفاع النظري عن الحرية بل انخرط عملياً بهمة عالية في خوض المعارك العديدة للدفاع عن كل شخص، يتعرض للقهر بسبب آرائه السياسية أو الدينية وعندما أعدم رجل فرنسي كهل بسبب اتهامه بحادث مزعوم ضمن أسرته لأسباب دينية دون أن يعطى الحق في الدفاع عن نفسه صعد فولتير الذي كان موجوداً في حين وقوع ذلك الحادث وتخلى تماماً عن ميله المعتاد للنكتة الساخرة وبدت عليه الصرامة والجدية المشفوعتان بالحزن والسخط على القوانين السائدة فاقتحم ميدان المعركة دفاعاً عن ذلك الضحية الذي يعدم ظلماً واستخدم تأثيره الأدبي والمادي للضغط على الحكومة الفرنسية من أجل إعادة المحاكمة من جديد، وتم بالفعل تبرئة الرجل الذي أدين زوراً من قبل في حادث انتحار أحد أبنائه.

وبرغم أن فولتير كان شديد التمسك بآرائه المسيحية، فقد خاض حرباً لا هوادة فيها ضد رجال الكنيسة الذين رأى فيهم أدوات لتشويه جوهر المسيحي المتسامح، واستمر كذلك

حتى نهاية حياته تحت شعاره الشهير (اسحقوا العار) وبعكس بعض المفكرين في تلك الحقبة التاريخية فقد سخر فولتير شعبيته الواسعة وأمواله الكبيرة في معركة الكفاح ضد الاضطهاد والقمع إلى جانب مواهبه الفكرية المكرسة أصلاً لتلك القضية التي ما انفك فولتير يعتبرها قضيته الأولى ولعل أهم ميزات فولتير الكفاحية إصراره المستمر على أداء رسالته والامتناع عن التراجع عن آرائه تحت أي ظرف أو لأي سبب حتى في مرحلة الشيخوخة فقد حاول رجال الكنيسة أرشاءه بأن عرضوا عليه قبعة أحد الكرادلة فرفض علناً دونما تردد أو مواربة ولم يغير رأيه تجاه الكهنة والرهبان كمدعين للخزعبلات والأباطيل البعيدة عن روح المسيحية، فقبل وفاته بساعات قبل تحت الحاح أصدقائه بمقابلة أحد الكهنة ليكون شاهداً على موته مؤمناً ولكي يمنحه كما جرت العادة في المذهب الكاثوليكي ولكن فولتير طلب من الراهب أول ما قابله بسخريته المعتادة أن يقدم إليه أولاً (أوراق اعتماده) فغضب الراهب وغادر المكان فوراً وحل محله آخر في عملية إجراء مراسيم ما قبل الموت وأصدرت كنيسة باريس بعد موت فولتير مرسوماً يحول دون دفنه في مقبرة المؤمنين التي نقلت إليها رفاته بعد الثورة وقد اشتهر فولتير باسلوبه الساخر المؤثر منذ بداية حياته الفكرية

والسياسية، فقد حدث أن أطلق سراحه من السجن بأمر من العرش فرد فولتير برسالة يشكر فيها البلاط الملكي على إخلاء سبيله ومنحه مبلغاً من المال لتدبير شئون حياته اليومية واختتم الرسالة بالرجاء (أن يترك له من الآن مسئولية تدبير سكنه بنفسه) إن فولتير لم يكن مجرد مناضل من أجل الحرية السياسية والفكرية لبني البشر فقط بل كان ايضاً نصيراً فعالاً للعلم (لا تتركوا الجهل يخضع العلم، سيدين لنا الجيل الجديد بفعله وحريته) وهكذا توفي فولتير بعد الثمانين من عمره وقد ترك لبلده فرنسا والإنسانية تراثاً عبقرياً وملهماً للكفاح المستمر من أجل المستقبل الخالي من الأغلال واختتم عصراً كاملاً من معركة الإنسان الطويلة والشاقة ضد الطغيان وكافة أشكال القهر، مردداً بثقة (ما علي إذا لم يكن لي صولجان؟ أليس لي قلم؟).

## الثورة الفرنسية

## وشرعية الحقوق الطبيعية للإنسان

بعد وفاة فولتير بسنوات زحفت الجماهير الباريسية في موكب جماهيري هائل مفعم بالحماس باتجاه سجن الباستيل الذي يمثل لحقبة طويلة من الزمن الأكثر بشاعة في التاريخ

للدهاليز والزنازن التي تقهر فيها الحرية وينكل فيها بالمكافحين من أجلها، ولم يكن ذلك الزحف الذي هدم سجن الباستيل وألغاه من الوجود إلى الأبد سوى تجسيد حي لأفكار فولتير وتعبير حي عن المغزى الذي بلغه الصراع الاجتماعي في فرنسا بالغاً بذلك الحدث أعلى ذراه ومحدثاً بذلك أول تغيير ثوري معاصر ومؤثر بحياة البشرية عبر التاريخ اللاحق وبصرف النظر عما شاب الثورة الفرنسية العملاقة التي أوصلت البرجوازية إلى السلطة من نواقص وما اعتراها من أخطاء فقد شكلت انعطافاً تاريخياً في كفاح الإنسان من أجل التحرر والديمقراطية ومن خلال مبادئها في الحرية والمساواة، وسيادة الشعب والحقوق الطبيعية للإنسان وألقت بتأثيرها على أوروبا برغم ملوكها، وليس ثمة دستور ليبرالي أو قانون للحرية بعد ذلك إلا وعليه بصمات الثورة الفرنسية ومنهجها الحقوقي وبرغم سبق بريطانيا على فرنسا في مجال التصنيع الآلي وثورتها على الملكية فإن الثورة الفرنسية هي التي حملت على كاهلها تدشين العهد الجديد للبرجوازية بكامل مناهجها الايديولوجية والحقوقية، وكانت باريس لأسباب كثيرة مؤهلة أكثر من غيرها لأن تعلن البرجوازية من هناك أول تطبيق عملي لرسالتها التاريخية في تقويض الاقطاع والانتقال بالبشرية إلى مرحلة جديدة، وعلى

كل حال فإن بقية بلدان أوروبا التي حاربت الثورة الفرنسية من قبل لحقت بموكب الثورة الفرنسية في أوقات متقاربة من خلال سلسلة من الثورات المعادية للاقطاع التي تواصلت حتى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين مكملة بذلك مهمتها التاريخية ومفسحة المجال عن غير قصد لنمو شكل جديد من الصراع والتناقض الاجتماعي الذي نمى في أحشاء المجتمع البرجوازي الجديد من خلال تطوره التكتيكي الهائل ولن ندخل في سرد التفاصيل لتلك الانتفاضات المتلاحقة لأن ذلك ليس مجال البحث هنا، والمهم أن البرجوازية على ضوء مصلحتها ومفهومها الايديولوجي سنت مجموعة من القوانين والتشريعات لصياغة الديمقراطية الليبرالية التي تسود في معظم بلدان أوروبا الغربية في الوقت الراهن، وحرصت على تكريسها ولو باللجوء إلى القوة أحياناً على نحو يضمن للبرجوازية الحرية التي استهدفت تحقيقها من قبل، والتي كانت تعني في الأصل حرية البرجوازية نفسها في الإنتاج الصناعي والتسويق والمنافسة، ثم الاستعمار والاحتكار فيما بعد، غير أن ذلك لا ينفي كون المجتمع الأوروبي ظل يتمتع بقدر كبير من الحريات الديمقراطية في مجالات التعبير عن الرأي واقامة المنظمات السياسية والجماهيرية وحق الإضراب والتظاهر، وتمكنت البرجوازية بعد ذلك من التكيف بوسائل

مختلفة مع التطور الهائل للصناعة والتكنولوجيا بما يمكن من تطويق أي آثار سياسية لإرادتها المتلاحقة، وبينما أعطت العمال وبقية الفئات الشعبية الحق في الترشيح والانتخابات للمجالس النيابية جعلت الدعاية تنفق عليها مبالغ هائلة من المال شرطاً لازماً لأي نجاح وخلال العقود الماضية تخلت البرجوازية تحت وطأة بعض أزماتها الاقتصادية، كالبطالة والتضخم والكساد عن ديمقراطيتها عن طريق اللجوء إلى الحروب الخارجية، أو إقامة دولة فاشية في الداخل كما حدث في عهد النازية في إيطاليا وألمانيا في الثلاثينيات، وكذا البرتغال واسبانيا، واليونان أو العمل على استصدار قوانين استثنائية مقيدة للحريات، مثلما حدث في أمريكا خلال الخمسينيات فيما سمي يومها بالمكارثية: التي غدت ستاراً للرغبة في اضطهاد أصحاب الرأي ومع كل عيوب الديمقراطية الغربية تبقى أفضل بكثير مما هو سائد في كثير من بلدان العالم الثالث التي تسودها الديكتاتورية، أحياناً لأجيال بكاملها، وبصورة دائمة، أو أنها تقوم بتطبيق جزئي ومشوه للديمقراطية الغربية بقصد التباهي والتقليد والادعاء المزيف الذي لا ينطوي - غير الدعاية - على أي شيء حقيقي، ولكن لماذا كان الأمر على هذا النحو في بلدان العالم الثالث؟

## عن الحرية والديمقراطية

## في العالم الثالث:

سبق أن تحدثنا عن مصير الحرية الإنسانية في أوروبا إبان عصر التنوير والمرحلة التي تلته، والصراع الذي احتدم يومئذ من أجل إنهاء الآثار السلبية التي خلفتها العصور الوسطى ومعلوم إنه تمخض عن ذلك الصراع مفهوم جديد للحرية تبلور في النهاية في شكل الديمقراطية الغربية، بمعناها الليبرالي، التي تهيمن اليوم على الحياة السياسية في أوروبا الغربية وشمال أمريكا واليابان وبلدان أخرى قليلة.

وتبيّن التطورات التي شهدها القرن الحالي على أن تلك الديمقراطية كانت محاصرة تماماً وملبية للتطور التاريخي للبشرية في حينها غير أنها فقدت بعد ذلك الرونق الذي اكتسبته عند الثورة الفرنسية بعد أن تربعت البورجوازية على عرش السلطة وتحولت مملكة العقل الأوروبية إلى جحيم تعيشه جماهير الشعوب الفقيرة، ولم تعد شعارات (المساواة والحرية) تعني شيئاً أكثر من حرية المنافسة والاستغلال،

ومدخل إلى عصر جديد كلية، وذلك هو عصر الاحتكار والامبريالية وإعادة تقسيم العالم وكانت بلدان العالم الثالث (بأراضيها) وثرواتها هي التي جرى تقسيمها بل والاحتراب من أجلها بين الامبرياليات الغربية، ودلف المستعمرون الغربيون إلى بلدان آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية بأساطيلهم وطائراتهم مدعين أنهم يحملون إلى تلك البلدان المتخلفة (رسالة الحضارة الأوروبية) وا ستعمروها.

نعد ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى في روسيا وتصاعد نضال حركات التحرير الوطني كان من البديهي أن يحاول بعض القادة الذين سلموا السلطة في العالم الثالث تقليد النموذج الغربي في الحياة السياسية اليومية، غير أن ذلك اصطدم بالواقع القائم وعلى الأخص طبيعة التطور الاقتصادي والاجتماعي في البلدان النامية وخصائص هذه البلدان القومية وتكوينها الثقافي، ويكاد يكون من المستحيل الحديث عن الحرية والديمقراطية في العالم الثالث بمعزل عن فهم طبيعة تطورها الاجتماعي ومدى حقيقة انعتاقها من السيطرة الاستعمارية بأشكالها المختلفة، إذ من المعروف بهذا الصدد أن شعوبها ما برحت تعاني طائفة من المشاكل السياسية والاجتماعية المعقدة، فالاقتصاد في معظمه يعتمد

على الزراعة بصورة أساسية وما زال نصيبها في الإنتاج الرأسمالي العالمي ضئيلاً جداً.

ولأنهم (حملة رسالة) فقد استلزمت منهم رسالتهم الجديدة التخلي التام عن الديمقراطية التي كانت تمارس في بلدانهم وتصرفوا مع شعوب المستعمرات على نحو آخر، قوانين استثنائية، وقوات مسلحة، وخلال تلك الفترة ذاتها كانت الديمقراطية في أوروبا تتعرض لشتى أساليب التطويق والحصار بوسائل مختلفة وأشكال متعددة بما فيها استخدام مخترعات العلم والتكنولوجيا الحديثة، علم النفس شركات ضخمة للإعلام وتوجيه كافة وسائل التأثير السيكولوجي الاجتماعي بهدف تزييف وعي الجماهير الأوروبية نفسها وإعادة تكوين اهتمامات الإنسان العادي اليومية وإشاعة الروح الاستهلاكية على نحو يحول دون قيام أي تمرد ضد سلطة البورجوازية، وحينما لا تجدي هذه الوسائل في تخدير وعي الطبقات الجديدة وتفاقم أزمة البورجوازية فإن السلاح والفاشية هما الملجأ الأخير كما أسلفنا في الحلقة السابقة. ولما كانت بلدان العالم الثالث على اتصال وثيق بالبلدان الغربية سواءً عن طريق الاستعمار المباشر أو عن طريق النفوذ السياسي والاقتصادي والثقافي فإن نمط الحياة السياسية

في أوروبا بتقلباتها المتعددة ترك أثراً كبيراً على القادة السياسيين والمنظمات السياسية والتكوين الايدلوجي والاجتماعي في معظم بلدان العالم الثالث.

وبسبب النفوذ الامبريالي وتخلف هذه البلدان فإنها لم تستطع بعد أن تتحرر من الأمية ويفتقر البعض منها إلى التجانس القومي والطائفي ويتسم تركيبها الاجتماعي بالهامشية بعض الشيء وتعايش أنماط اقتصادية متعددة، وبالنتيجة لم تتكون فيها بورجوازية ثورية بالمعنى الأوروبي تأخذ على عاتقها تصفية علاقات الإنتاج الاقطاعية وما قبل الاقطاعية والانتقال إلى مرحلة جديدة. وهكذا نرى أن مجموعة من المهام المتشابكة والمعقدة قد انتصبت أمام هذه البلدان منذ نيلها للاستقلال ومن أهمها تحقيق الاستقلال الاقتصادي والتخلص من التبعية الاستعمارية، ورفع مستوى معيشة شعوبها، وبلورة ثقافة وطنية تقدمية تستطيع الصمود في وجه الغزو الثقافي الاستعماري المتكرر، وبكلمة: الانعتاق كلياً من مخلفات العهود الاقطاعية وتصفية آثار الاستعمار الغربي الذي أبقى شعوب العالم النامي (خارج التاريخ) لعدة قرون، ولعل من المفيد ونحن نتحدث عن موضوع الحرية في العالم الثالث أن نشير إلى أن الحياة السياسية في معظم

بلدانه تميزت بالتغيرات السريعة وانعدام الاستقرار السياسي، واعتماد وسائل العنف غير الجماهيرية طريقاً إلى السلطة مثل الانقلابات العسكرية، ومؤامرات القصور والتي تقوم في معظم الأحيان بسبب خلافات شخصية، أو لمجرد التنافس على السلطة دون وجود تباين برنامجي بين المنقلب والمنقلب عليه، وتبرز (بوليفيا) مثلاً كنموذج سيء للبلدان التي أصبحت مسرحاً للانقلابات العسكرية المتوالية فقد شهد ذلك البلد الأمريكي اللاتيني الصغير مائة وخمسة وثمانين انقلاباً عسكرياً منذ استقلاله. وبسبب تدني الوعي السياسي وحظر النشاط السياسي المنظم فإن الجماهير لا تستطيع التعبير عن ارادتها ولا التصدي الناجح للطغيان السياسي والاجتماعي فتضطر في غالب الأحيان إلى الهتاف لأي حكم كان وإلهاب أكفها بالتصفيق لأي دكتاتور حتى ولو كان يذبحها (عاشت العدالة) ومن البديهي أن يترتب على أوضاع كهذا نمط معين من الحياة السياسية المألوفة ينطوي على احتقار الديمقراطية أو عدم الاكتراث بها في أحسن الأحوال والاعجاب بالبطل الفرد الذي ينوب عن الجماهير في التفكير والعمل. وتتجمع فيه (مواهب الأمة وعبقريتها) ولا يتوانى بعض المثقفين الانتهازيين المتحلقين حول الحاكم أن يؤكدوا على هذه المسألة ويصيغوا مبرراتها المنطقية والتاريخية ببلاغة قوية

ولذلك فإن مهمة المكافحين من أجل الحرية أصبحت غاية في الصعوبة وكان عليهم أن يقدموا تضحيات كبيرة ويتعرضوا لمعاناة غير محدودة على نحو يفوق ما فعله زملاؤهم في أوروبا الذين خاضوا معركة تحرير العقل الإنساني في العصور الوسطى وبداية عصر التنوير خصوصا وقد دأب العديد من حكام العالم الثالث على الاستفادة القصوى من حضارة الغرب الحالية ووسائلها التكنولوجية فيما يتعلق بوسائل التعذيب الحديثة، وتزييف الوعي، وطرق الاكراه المختلفة. الأمر الذي وضع العديد من القادة السياسيين وزعماء الكلمة في العالم الثالث أمام خيارات ضيقة ومحدودة. فإما قول الكلمة الحرة والشريفة المناهضة للظلم والدكتاتورية ومنع الحرية ليكونوا بالتالي عرضة لشتى أساليب الاضطهاد والقمع بما فيها التجويع والموت أحيانا بدون محاكمة، وإما الإنكفاء على الذات والكتابة بطريقة مموهة خوفاً من سوط الإرهاب أو عدم النشر والكتابة والنضال على الإطلاق وقد يتبع بعض أرباب الكلمة الحرة والشريفة هذا السبيل احتجاجاً على خنق الحرية في

بلادهم، وقد عبر عن هذه الحالة أحد الكتاب اللامعين في أمريكا اللاتينية (غابرييل غارسيا ماركيز) من خلال روايته الجديدة (يوميات موت معلن) التي لم تنشر بعد والتي وصفها بأنها (نصف تاريخ لجريمة حقيقية) وترمز إلى إنسان يعرف الناس جميعاً أنه سوف يموت إلا هو. ولدى الكاتب نفسه خمسين قصة وكتاباً يصر على عدم نشرها حتى يموت دكتاتور تشيلي الجنرال (بيونشت) وعلى حد قول الكاتب المذكور «سيعلن الإضراب حتى يحل التشيليون مشكلته» وقد يظن البعض أن لهذا الأديب موقفاً سلبياً أو أنه بدون موقف، ولكني أحسب أن كلماته تلك تحوي من الرصاص القادر على اختراق جدار الإرهاب وصرعه في النهاية. وكثيرون هم الكتاب الذي اضطروا إلى كتابة مؤلفاتهم وعدم نشرها أو هجر أوطانهم وعائلاتهم وتكبد مشاق الاغتراب ومرارة البعد عن الأهل والوطن بغية الابقاء على ضمائرهم حية وأنه لموقف صحيح أن يهاجر المرء أو يصمت إذا لم يستطع أن يفعل شيئاً من أجل وطنه وحرية شعبة بدلاً من أن يمجد الطغيان ويقول بعزته بأنه فعل ما فعل رغماً عنه ومسايرة للظروف. ولكن هل الحكام في العالم الثالث وحدهم هم المسئولون عن مثل هذا الذي يحدث لقادة الفكر وأرباب الكلمة؟؟.

## دور المثقف والسياسي الانتهازي

## في خنق الحرية وممارسة الإرهاب الفكري

في عصرنا الراهن برز العديد من الكتاب والمثقفين ومحترفي السياسة ممن اختاروا لأنفسهم النهج الانتهازي دونما اقتناع نظري مسبق في معظم الأحيان بل بهدف التزلف للحكام والحصول على منفعة شخصية آنية فلم يكتفوا بتسخير مواهبهم لتجميل وجه الإرهاب وتبجيل الحكام وحرق البخور في مجالسهم. بل تجاوزوا ذلك إلى التحريض المباشر ضد الرأي المخالف والإفتاء بجواز قمعه ووضع أسس نظرية للإرهاب الفكري وتبرير القمع، ومن هذه الحقيقة ينبثق الرد على سؤالنا المطروح آنفاً، وعليه فإن الحكام الجهلة لا يعدون مسئولين بمفردهم عن الاضطهاد وكبت الحريات، وإنما يشاركهم في المسئولية بل ويكون أكثر منهم شراً وخطراً ذلك المثقف الذي يضع التبرير القانوني والفكري ضد الحريات الإنسانية، ان مثقفين من هذا النوع إنما ينتجون في الواقع ثقافة إرهابية، ويخونون الثقافة ويتحللون من القيم النبيلة وليس من الغرابة في شيء أن

يصل الأمر بمثل هؤلاء إلى التخلي عن الوطنية وتبرير التدخل الاستعماري الأجنبي في شئون بلادهم بل وتحبيذه. غير أن تجارب الشعوب المناضلة في سبيل الحرية والاستقلال الوطني أثبتت أن الكلمة كانت وستبقى سلاحاً تقدمياً بيد الجماهير لا يفل وليس بوسع أية طفيليات أن تؤثر عليه، ومن المؤكد أن الكلمة التي لا تساير التاريخ ولا تخدم مصالح الشعوب تموت حين ولادتها وتلقي بقائلها إلى مزبلة التاريخ.

## أشكال التطبيق العملي لمفاهيم الحرية والديمقراطية في بلدان العالم الثالث

من المعلوم أن الحرية في بلدان العالم الثالث اختلف مفهومها بعض الشيء عما كان عليه في بداية عصر التنوير الأوربي والعصور التي سبقته فمن ناحية اكتسبت بعداً اجتماعياً ووطنياً وغدت الجماهير تكافح لا من أجل حرية الكلمة والتنظيم فحسب بل وفي سبيل المساواة الاجتماعية والتحرر من ربقة الاستغلال الطبقي والتبعية الاستعمارية، ومن ناحية أخرى اقتصر مفهوم الحرية الفكرية على المعنى

السياسي الذي يعني حرية التنظيم والصحافة والتعبير عن الرأي السياسي المعارض بحرية تامة، ولم تعد حرية الضمير وحق الاختراع العلمي والاستنباط الفلسفي مطروحة للنقاش إلا في أضيق الحدود وسبب ذلك أن الإنسان في العالم الثالث في العصر الحالي غدا مستهلكاً للفلسفة والعلوم التي تصله من العالم المتطور شأنها شأن المواد الاستهلاكية الأخرى كالسيارة والطائرة وأدوات المنزل وغيرها سواءً بسواء، كما وأن العديد من المسائل الكونية التي كانت محل نزاع بين العلم والفلسفة والدين قد تم حسمها في بداية عصر النهضة الأوروبية فلم تعد مسألة كروية الأرض ولا مكانتها في النظام الفلكي للكون أمراً يتجادل الناس فيه، وبصعود الإنسان إلى القمر انتهت آخر معركة بين العلم والأفكار السلفية المتزمتة بهزيمة الأخيرة بصورة نهائية، ومن هذا المنطلق فإن المعركة في العالم الثالث دارت وتدور حول الحرية بمفهومها السياسي والاجتماعي والوطني فكيف عولجت هذه المسألة؟ وما هي نتائج الصراع من أجلها حتى الآن؟

يمكننا من خلال الأشكال السياسية الملموسة في العالم الثالث الإجابة على هذا التساؤل وتبيان الطرق التي اتبعت وتتبع حيال الحريات العامة وحقوق الإنسان، وطبيعة الأنظمة

الحاكمة، وفي هذا الصدد تبرز أمامنا نماذج ثلاثة في مجال التطبيق الديمقراطي أو عدم تطبيقه، ويتمثل النموذج الأول فيما اصطلح على تسميته بـ(الديمقراطية الشعبية) ويطبق هذا النموذج في عدد قليل من بلدان العالم الثالث التي خاضت شعوبها معارك طويلة ضد الاستعمار وركائزه المحلية وتوفرت لها الأداة السياسية المنظمة ذات النهج التقدمي، ويتصف هذا النموذج الذي تطور في معمعان المعارك المعادية للامبريالية بأنه أسلوب جديد في ممارسة الحكم يقتضي بطبيعته أن تشارك الجماهير الواسعة في السلطة، ويوائم بصورة دقيقة بين الحرية السياسية والاجتماعية عن طريق التكافؤ الاجتماعي وصيانة الاستقلال الوطني وتكوين تحالفات ديمقراطية ووطنية ذات طابع جبهوي تضطلع بمسئولية تحكم وتمارس الحرية والديمقراطية على نحو يتجاوز سلبيات المنهج الليبرالي للديمقراطية الغربية، وينأى عن أساليب الدكتاتورية الفردية والأسرية وذلك بإقامة مجالس الشعب المحلية والعليا المنتخبة انتخاباً حراً ومباشراً وبواسطة الاقتراع السري وتشجيع العمل النقابي والجماهيري وحق الإبداع في مجال الفكر والفن والأدب...

أما النموذج الثاني فيتمثل في النهج السياسي لبعض بلدان العالم الثالث التي أخذت بأسلوب الديمقراطية الغربية من حيث نهجها الاقتصادي والاجتماعي وصياغة القوانين الأساسية والفرعية بأسلوب ليبرالي وتطبيقه على الحياة العامة في المجتمع من خلال حرية الصحافة والسماح بتشكيل الأحزاب السياسية ذات البرامج المختلفة وإجراء انتخابات دورية، وقد أفلحت دول قليلة في التطبيق الناجح لهذا المنهج فبرزت على رأسها جمهورية الهند التي أضفت على نفسها صفة العلمانية منذ الاستقلال وحتى الآن، ولا شك بأن نجاح الهند في ذلك يعود إلى أسباب كثيرة وبينها خصوصيات المجتمع الهندي تاريخياً وطبيعة تطورها الاقتصادي وتركيبها القومي والديني وفوق ذلك وقبله سجايا المجتمع الهندي المتسمة بالتسامح ومن المؤكد أنه لم يكن أمام الهند بحجمها السكاني الكبير وتعدد قومياتها وطوائفها الدينية سوى العلمانية أو الحرب الأهلية والتشطر دويلات عديدة، ومن المهم في هذا الصدد أن نشير إلى أن علمانية الدولة الهندية ومنهجها الليبرالي في ممارسة الحكم لم تفلح في إنقاذ ملايين الهنود من البؤس ووطأة الإملاق، ولم تستطع أن تضع حداً نهائياً لمختلف التناقضات الاجتماعية والصراعات القومية والدينية ذلك أن مثل هذه الديمقراطية

ذات النكهة البريطانية لم تكن معنية بحكم طبيعتها البورجوازية ولا قادرة على إلغاء التمايزات الاجتماعية والقومية، فما زالت مئتا أسرة هندية فقط تفرض سيطرتها التامة على مختلف فروع الاقتصاد الهندي الصناعي والزراعي، بينما يعيش مئات الملايين على الكفاف، والحق أن هذه الديمقراطية قد منحت جماهير الهند حق الكلمة ولم تستطع أعطاءها خبزاً، ولعل هذه الحالة التي يعيشها الشعب الهندي في ظل الديمقراطية البورجوازية هي نفسها التي حدى بأحد الفلاسفة الثوريين الكبار إلى القول بأن النظام الرأسمالي يمثل «الفصل الختامي لمرحلة ما قبل التاريخ» للمجتمع البشري.

ويتمثل النموذج الثالث في أنظمة الحكم الدكتاتورية التي تغطي معظم بلدان العالم الثالث وتتخذ أشكالاً وأساليب مختلفة لممارسة السلطة والتعامل مع الحرية وتتصف جميعها بكلمة واحدة هي (الدكتاتورية) التي تنهج سبيل القوة والقمع المادي والفكري بهدف اغتصاب السلطة والاستمرار في الحكم، وكما هو معروف فإن هذه الدكتاتورية ذات ألوان مختلفة ولها اسماء متعددة: تحالف البيوتات والأسر المستغلة والمتنفذة وممارسة القمع بحزب أو بدون حزب، الدكتاتورية

الشخصية أو الفردية التي تعني عبادة الفرد وتأليهه وعدم جواز مناقشته في أي أمر من أمور الحياة أو في أي شأن من الشئون السياسية والاجتماعية بوصفه القائد الذي لا يخطئ والقادر على إحداث التطورات الاقتصادية والاجتماعية بعبقريته وبدون الجماهير ترسيخاً للطريقة البونابرتية وسيراً على هداها، وفي الحقيقة فإن تلك الأنظمة تعبير عن الواقع الاجتماعي القائم بصورة مختلفة، وبرهان على قصور التطورات الموضوعية ومحدودية النضالات الجماهيرية وفاعلية المؤسسات القمعية، وهي إنما تمثل مصالح طبقة أو مجموعة من الطبقات وتدافع عنها بمختلف الأساليب السياسية والاقتصادية والعسكرية وغالباً ما تنجح مثل تلك الأنظمة في إضفاء صبغة الشرعية على نظام حكمها، وفي مصادرة الحريات الفكرية والسياسية لجماهير الشعب وطلائعها المناضلة باسم الحفاظ على الوحدة الوطنية ومحاربة الأفكار المستوردة، والحرص على التقاليد والعادات والتراث أحياناً (وحماية السلام الاجتماعي) أحياناً أخرى، والمبررات لهذا الأمر لا تحصى، ويتسم مسلك هذه الأنظمة تجاه الحريات السياسية والاجتماعية لشعوبها بالنفاق والشخصية المزدوجة، فهي تصيغ دساتير متطورة تضاهي دستور الثورة الفرنسية ان لم تتفوق عليه وتمنع عملياً كل

نشاط سياسي معارض، وتصدر القوانين المدنية الحديثة وتطبق الأحكام العرفية، وإذا أصدرت الأمم المتحدة أو إحدى منظماتها وثيقة حول حقوق الإنسان مثلاً سارعت إلى التوقيع عليها والاحتفاء بها ولا يهم بعد ذلك كم عدد المعتقلين السياسيين الذين يقبعون في المعتقلات بسبب آرائهم السياسية المعارضة، وإذا ما تحدثت أجهزة إعلامها عن الديمقراطية فإنها تتحدث عنها باسراف ومبالغة يفوقان الوصف ويثيران الدهشة ويجعلان كل مواطن يحتار بين ما يسمع وما يشاهد في الواقع، سوى توفير الحرية والديمقراطية لمراكز القوى الحاكمة وليس الهدف من وراء ذلك غير تتويه الشعب واحتواء أي تفكير في ديمقراطية حقيقية، ومن الظريف في هذا الصدد أن الانقلابات العسكرية التي تحدث بالتتابع في هذا البلد أو ذاك من بلدان العالم الثالث تحرص على النص في بيانه الأول بأن هدف الانقلاب الأساسي هو إعادة الحرية والديمقراطية للشعب وخلق الظروف الملائمة لإقامة (حياة سياسية سليمة) ثم ما تكاد تقترب الفترة الانتقالية من نهايتها إلا وتدعو (المصلحة العامة) إلى تمديدها مرة بعد أخرى وهكذا، وحينما يتم لها التأكد من أن الإرهاب قد بلغ أهدافه النهائية في القضاء على معارضة سياسية واجتماعية من أي نوع كان، وإخراج

الجماهير من ميدان المعركة السياسية وسيطرة اليأس والقنوط على نفسياتها ترفع شعارات الديمقراطية من جديد وتبالغ في حرصها على مشاركة الشعب في الحياة السياسية بهدف إضفاء صفة الشرعية الشكلية على الحكم القائم فتقوم بإصدار الدساتير المؤقتة والدائمة وتكوين المجالس النيابية (من ذوي الحل والعقد) ومن أجل البرهنة على جدية المضي في طريق الديمقراطية واعطاء الحرية للشعب فلا بأس من إجراء استفتاءات شعبية حول هذه المسألة أو تلك تكون نتيجتها باستمرار الحصول على موافقة الشعب (٩٩،٩٪) وأي شخص لا يروق له هذا النهج الديمقراطي القويم فعليه أن يختار بين السجن أو الهجرة لئلا يعطل مسيرة الديمقراطية ويضر بالوحدة الوطنية.

والخلاصة أن الحرية في معظم دول العالم الثالث بمعناها الشامل لم تزل مفقودة ومنعدمة، وما زالت الديمقراطية مطلباً بعيد المنال وتحتاج إلى كفاح طويل وشاق يتعين على أي شخص يطلبها أو يبغي تحقيقها أن يكون مستعداً إلى أقصى حد لبذل المزيد من التضحيات والجهد حتى تغدو الكلمة حرة والتنظيم مكفولاً والعمل متاحاً للجميع.

## الحرية في ظل الحضارة اليمنية القديمة:

في تاريخ الشعب اليمني كما هو لدى الشعوب الأخرى يستحيل التوصل إلى استنتاجات واقعية ومحددة حول المسألة الفكرية بأشكالها الثقافية والحقوقية المختلفة بعيداً عن الحقائق المتعلقة بطبيعة البناء التحتي، إذ لا بد من معرفة اسلوب الإنتاج الذي كان سائداً وطبيعة الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية التي تهيمن على المجتمع في كل مرحلة بعينها حتى يتسنى تحديد البناء الفكري والسياسي المسيطر، وفيما يتعلق بالمجتمع اليمني القديم أي مجتمع ما قبل الإسلام فإن المؤرخين على اختلاف مناهجهم في كتابة التاريخ اختلفوا في تحديد الأسلوب الرئيسي للإنتاج وطبيعة التشكيلات الاجتماعية التي مر بها الشعب اليمني في ظل الدول المتعاقبة منذ دولة معين وسبأ وحتى ظهور الإسلام، فقد ذهب البعض إلى أن الدولة اليمنية القديمة كانت ذات طابع عبودي ويتصف حكمها بمركزية صارمة بينما ذهب البعض الآخر إلى القول بوجود تماثل تام بين الدولة اليمنية القديمة وبين أنظمة الحكم الشرقية التي ظهرت في التاريخ القديم والتي تميزت بما اصطلح على تسميته بأسلوب الإنتاج الاسيوي

المعروف، بيد أن بعض المؤرخين يرون أن الحضارة اليمنية القديمة انفردت بخصائص اجتماعية وسياسية معينة لا صلة لها بأسلوب الإنتاج الاسيوي، وبهذا الصدد يرى بعض المستشرقين بأن دراسة حضارة اليمن باعتبارها البلاد ذات طريق تطور تاريخي خاص يمكن أن تساعد على حل جزء من القضايا النظرية المهمة مثل (قضية نشوء الطبقات والدولة ودور التجارة في اقتصاد الشرق، وقضية تبدل التشكيلات الاقتصادية والاجتماعية). وبسبب ندرة المعلومات المتاحة عن الحضارة اليمنية القديمة وعدم كفاية البحث العلمي الذي استخدم حتى الآن في الكشف والتنقيب عن الآثار يصعب تقرير أي من تلك الاستنتاجات والركون إليها كحقائق. ولا ريب بأن افتقار اليمن إلى الأنهار وحاجة أهلها إلى الزراعة من أجل البقاء هو الذي حدا بهم إلى ابتكار وسائل الري الصناعي بإقامة السدود وحفر القنوات لحفظ وتصريف مياه الأمطار، ولعل وجود مثل تلك المنشآت الضخمة كسد مارب مثلاً يبرر افتراض وجود روح تعاونية عالية ووعي ديمقراطي تلقائي، أو وجود دولة مركزية ذات نظام سياسي صارم، ويدل قيام اكثر من دولة يمنية في زمن واحد أو بالتعاقب على أن تلك المركزية لم تدم طويلاً وأن عقدها قد انفرط أكثر من مرة إما بسبب الحروب الناشئة عن التنافس

بين القبائل الكبيرة أو نتيجة للتخفيف المتعمد في المركزية السياسية للدولة والاتجاه نحو شكل من أشكال الديمقراطية، وتبرهن بعض الوقائع على وجود حالات مختلفة فيما يتعلق بالنهج الديمقراطي لدى الدولة اليمنية القديمة حيث كانت دولة (قتبان أكثر ميلاً نحو الديمقراطية بينما كانت دولة معين أميل إلى الاستبداد) وتشير بعض المصادر التاريخية إلى قيام بعض المجالس القبلية الاستشارية ذات المسحة الديمقراطية البدائية في بعض المراحل بينما كانت السلطة السياسية والروحية تتركز جميعها في يد حاكم واحد هو المكرب في مراحل أخرى) ومن خلال المعطيات التاريخية المشار إليها سلفاً يمكن الاستنتاج بأن المجتمع اليمني القديم مر بفترات تاريخية متنوعة ساد بعضها الاستبداد الشرقي الشديد وساد بعضها الآخر نوع من أنواع الديمقراطية على نحو أتاح لأفراد عاديين فرصة لممارسة قدر من المشاركة في إدارة شئون الدولة، بيد أن هذه الاستنتاجات ستبقي نسبية لا يمكن الجزم بما هو الرئيسي منها إلى حين يستطيع علماء الآثار والمؤرخون المهتمون التوصل إلى حقائق قاطعة.

وإذا كان الغموض يشوب مراحل التاريخ اليمني القديم على نحو يتعذر معه تبين طبيعة الأوضاع السياسية والاقتصادية

والاجتماعية وبالتالي منهج الدولة الحقوقي وحال الثقافة الوطنية على نحو دقيق فإن ظهور الأديان يقدم من خلال التاريخ المكتوب صورة أولية للكيفية التي تعامل بها المجتمع اليمني مع الحرية وعلى الأخص حرية الاعتقاد والضمير وحسب ما هو معروف فإن اليمنيين اعتنقوا الديانة اليهودية ثم المسيحية من بعدها واستجابوا للدعوة الإسلامية بصورة كاسحة دون أن تحدث أية مذابح كبيرة لها طابع طائفي وليس ذلك سوى برهان عملي على أن الشعب اليمني يتسم بروح التسامح الفطري والابتعاد عن وسائل الاكراه العقائدي، وإذا كان هناك أي حوادث فإنها فردية واستثنائية لا تشكل أي نقض للقاعدة، ويحلو لبعض المستشرقين التركيز على حادثة الأخدود في نجران اليمنية بوصفها دليلاً على التعصب والافتقار إلى التسامح غير أن الحقائق التاريخية التي تقدمها الظروف المحيطة بذلك الحادث المأساوي تدل على أن نصارى نجران قتلوا لأسباب سياسية بحتة لا علاقة لها بحرية الاعتقاد الديني ذلك أن العقاب الذي أنزله المجتمع بأولئك الرجال لم يكن سوى رد فعل عفوي على عمالتهم للأحباش والدولة الرومانية التي كانت تتطلع إلى استعمار اليمن تحت راية الدين المسيحي، وعهد إلى ذلك النفر من اليمنيين مهمة التبشير بالاستعمار الروماني تحت ستار الدعوة إلى دين

المسيح ولذلك فإن الاستخلاص الذي يتفق مع المنطق يؤكد من جديد أن نصارى نجران لم يقتلوا بسبب عقيدتهم الدينية قط بل لأنهم جعلوا من أنفسهم بوعي أو بدون وعي جسوراً محلية لعبور الاستعمار الروماني إلى اليمن في جلباب مسيحي، من ناحية أخرى فإن تلك الواقعة تفضي بنا إلى استنتاج هام آخر وهو أن كراهية اليمنيين للنفوذ الأجنبي كانت صفة ملازمة لوجودهم التاريخي وجزءاً من تكوينهم الاجتماعي والنفسي منذ القدم مهما كان ذلك النفوذ ومهما كانت شعاراته ووسائله حتى وأن حمل معه كتب التوراة والانجيل مترجمة إلى لغة حمير، ومما له أهمية خاصة بهذا الصدد هو أن الخيال اليمني الشعبي أضفى على الكفاح المعادي للاستعمار طابعاً اسطورياً من خلال الروايات المتعلقة بالملك الحميري ذونواس وزعيم المقاومة سيف بن ذي يزن فالأول ألقى بنفسه في البحر راكباً وغرق مع فرسه وهو يصارع الوجود الروماني والحبشي على أرض وطنه، وتجشم سيف مشقة السفر والترحال من بلد إلى آخر بحثاً عن الدعم والمساندة في سبيل تحرير وطنه وطرد الغزاة. وبصرف النظر عن حقيقة ما حدث من قبل ذو نواس وما هية الدوافع التي حدت به إلى معانقة الأمواج الهادرة والموت طوعاً في احضانها وبصرف النظر كذلك عن الجهة التي

قصدها سيف بن ذو يزن طلباً للعون أكانوا من أبناء عمومته في الحيرة أم الفرس وخطئه التكتيكي في إقامة تحالف غير متكافئ مع دولة كبيرة لها مصالح في الغزو والتوسع فإن تلك الوقائع التي تنطوي على الجمع بين البطولة والمأساة، إنما تفصح عن روح مشبعة بالمقاومة وحب الوطن وتعلق شديد بحريته واستقلاله وتعبير عميق عن أحاسيس الشعب بكامله، وهنا تكمن أهميتها التاريخية وتتجلى دروسها الثمينة بوصفها مظهراً حياً لكفاح الشعب اليمني من أجل التحرر بالوسائل المتاحة.

## الشورى في التاريخ القديم:

الشورى كلمة معروفة في القاموس السياسي اليمني منذ القدم، ونجد المضمون التطبيقي لهذه الكلمة في قصة الملكة بلقيس مع الملك سليمان حسب ما أشارت إليه كتب التاريخ والتوراة وما ورد في القرآن الكريم في سورة النمل. وتقدم تلك القصة مفارقة مهمة جديرة بالتمعن؛ ذلك أن الديمقراطية والشورى تجسدت على أكمل وجه في مسلك الملكة بلقيس، فبرغم استخدام الملك سليمان لوسائل التأثير المختلفة بغية

التأثير على الملكة اليمنية ودفعها إلى اعتناق الديانة اليهودية فقد أظهرت بلقيس قدراً كبيراً من التردد والارتياب حيال دعوة سليمان فلم تستجب بسرعة أو تنفرد بالرأي وحرصت على التشاور مع قومها قبل أن تقول في ذلك الأمر الهام رأياً حاسماً، وعلى العكس من الملكة فإن الرجال الذين استشارتهم لم يمارسوا حقهم وواجبهم في الشورى بأي قدر على الإطلاق واكتفوا برد الأمر إلى الملكة والتأكيد على أنهم (أولوا قوة وأولوا بأس شديد) وما كان ينبغي لهم اتخاذ ذلك الموقف السلبي تجاد قضية مصيرية تتعلق بمستقبل دولتهم وديانة سكانها، ومن الواضح أن ذلك الموقف لا يعكس بأي حال قناعتهم بالاستجابة للدعوة، وما اشارتهم إلى أنهم (أولوا قوة وأولوا بأس شديد) إلا دليلاً على الشك والتردد وحث الملكة بصورة غير مباشرة على المقاومة.

## كفاح الإنسان اليمني في سبيل

## الديمقراطية والحرية عبر التاريخ

باستجابة اليمنيين للدعوة الإسلامية ذاب كيانهم المستقل في إطار الدولة الإسلامية المركزية وطبقت عليهم انظمتها وشرائعها التي كانت تسن وتصدر من عاصمة الدولة في الحجاز ثم دمشق وبغداد ومن غير الممكن لهذا السبب القول بوجود ممارسات الحرية في اليمن يختلف عما كان سائداً في سائر أرجاء الدولة الإسلامية خصوصاً في صدر الإسلام والحقب التاريخية القصيرة التي تلته على الرغم من الدور الكبير الذي لعبه اليمنيون في مناهضة الإرستقراطية الأموية والعباسية من بعدها ومشاركتهم مختلف الانتفاضات الحركات السرية المعارضة رفضاً منهم لوجود تمييز ضدهم واستبعادهم من أي مشاركة فعلية في قيادة السلطة السياسية منذ يوم السقيفة واستئثار قريش بالسلطة صورة مطلقة، ولكن بعد تمزق الدولة الإسلامية المركزية وبروز كيانات محلية ظهر بوضوح الطابع الخاص لممارسات المجتمع اليمني السياسية والفكرية وموقفه من الحرية،

والمقصود بالمجتمع الغالبية الساحقة من الشعب وطلائعه المثقفة التي عبرت دوماً عن مواقف وتطلعات السواد الأعظم والتقطت همومه ومعاناته باستمرار..

ومن المعروف أن اليمن شكلت على أيدي الزياديين كياناً سياسياً شبه مستقل عن عاصمة الخلافة وعجزت السلطة الإسلامية المركزية عن اخضاع الزياديين وارغامهم على الانصياع التام للنظام المركزي لعوامل جغرافية وسياسية متعددة أهمها بعد اليمن عن مركز الخلافة وشعور اليمنيين بكيانهم الذي تكون تاريخياً قبل الدعوة الإسلامية وارغامهم على القيام بدور سياسي وعسكري ثانوي في ظل الدولة الإسلامية المركزية على الرغم من دورهم في الفتوحات وسبقهم في الإسلام. ولعل من بين الأسباب الأكثر أهمية الدور الاستبدادي الذي لعبه الفرس في اليمن قبل الإسلام وبعده، وسيطرتهم على مرافق الحياة الاقتصادية خصوصاً في مجال الزارعة والتعدين، وتجمع المصادر التاريخية على أن المعارك الوطنية ضد الفرس اتسمت بالعنف الشديد خصوصاً بعدما تمكنت الأقلية الفارسية من تثبيت نفوذها عقب الدعوة الإسلامية بإعتناق الإسلام والاستفادة من طابعه الأممي للبقاء في مركز النفوذ والسلطة. وحينما قدم لليمن

أول أمير علوي ويدعى إبراهيم بن موسى وذلك في القرن التاسع الميلادي وقفت الأقلية الفارسية إلى جانبه وساعدته على قتل المئات من اليمنيين وتدمير بعض المدن وإخلاء بعضها الآخر من السكان مثل مدينة (صعدة) كما (هدم سد الخانق ودمر المدينة) وهو ما دفع باليمنيين إلى تلقيبه (إبراهيم الجزار) والتكاتف فيما بينهم لمقاتلته وهزيمته في النهاية وارغامه على العودة إلى بغداد، وهو أمر حال دون تجدد الدعوات العلوية إلى أن قدم الهادي يحيى بن الحسين، بعد ذلك بسنوات عديدة.

## الحركات الشيعية

## وازدهار الحياة الفكرية

بمرور الزمن أضحت اليمن تشكل كياناً مستقلاً لا يربطها بمركز الخلافة سوى الدعاء للخليفة في صلاة الجمعة وكانت الحواضر الإسلامية في الشام والعراق وفارس تعج بالأحزاب والحركات الإسلامية السرية المعارضة للأمويين ومن بعدهم الدولة العباسية، وكان الخوارج والشيعة يشكلون أبرز تلك

الحركات وأكثرها تنظيماً وشجاعة، ومن البديهي أن تقع أنظار هذه الحركات على اليمن وأن تتوق كل منظمة أو حزب إلى إقامة دولتها على هذا القطر النائي البعيد عن سيطرة الدولة الإسلامية المركزية وسطوتها واستغلال رغبة اليمنيين في تكوين دولتهم المستقلة، ومن المعروف كما اشرنا سلفاً أن الزياديين كانوا قد أقاموا دولتهم على مساحات واسعة من اليمن ورسخوا من سلطتهم في وجه منافسة حادة من قبل بعض الزعامات الاقطاعية اليمنية، غير أن الحركات الجديدة كانت تتوفر لها مجموعة من العوامل والأسباب للنجاح فبالإضافة إلى ديناميكيتها ودقتها في التنظيم كان المجتمع اليمني مهيئاً لتقبل أي دعوات دينية أو سياسية جديدة تستطيع استشفاف همومه الوطنية والاجتماعية والتعامل معها، وتكمن الأسباب الاقتصادية والاجتماعية التي أفضت إلى نجاح الدعوات الجديدة في الحالة الاقتصادية والمعيشية المتردية التي كان يعيشها السكان المحليون خلال تلك المرحلة، فقد تحولت اليمن في عصر الخلافة إلى إقليم مهمل يقتصر دوره على دفع الضرائب واستقبال عمال الخلفاء وإرسال الجند إلى جبهات القتال في أطراف الدولة الإسلامية شرقاً وغرباً، وهو ما أفضى إلى خراب الزراعة وضعف التجارة والصناعة المحلية بصورة خطيرة، وازداد الأمر سوءاً عقب

رحيل الأقلية الفارسية التي كانت تسيطر على أهم المزارع ومراكز التعدين بعد أن كانت قد احتكرت الخبرات وحالت دون تعليمها لليمنيين فلم تكن النتيجة حينئذ سوى تدهور الحالة الاقتصادية والاجتماعية واصابة حياة السكان بالعوز والركود الشديدين، ومن ثم إجداب الحياة الفكرية والسياسية بصورة شاملة بل وبروز بعض الزعامات الاقطاعية الموالية للفرس والتي فضلت مصالحها الأنانية على مصلحة الوطن في الاستقلال والحرية فطفقت تنشر التذمر والاضطراب في عموم البلاد وتتغنى بفضائل الأقلية الفارسية، وتعطي تلك الوقائع التاريخية مدلولات اقتصادية وسياسية بالغة الأهمية مابرحت تبرز بجلاء وتؤكد حقائق العصر الراهن بخطورة السيطرة الأجنبية على الاقتصاد الوطني وقدرتها على استقطاب عملاء محليين ينوبون عنها، وأن الشعوب تستطيع أن تتحرر سياسياً فقط بقدر ما تتحرر اقتصادياً.. المهم في الأمر أن الأرضية الاجتماعية والاقتصادية المشار إليها هيأت الأجواء والمناخ المناسب للدعوات الدينية والسياسية الجديدة وعلى الأخص دعوات الحركات الشيعية التي نجحت في التأثير على السكان خلال فترات زمنية قصيرة نسبياً، ولقد كان من الواضح (أن الدعاة الإسماعيليين والقرامطة والزيديين لا يجادلون من أجل اقناع الناس بمفاهيم عقائدية

دينية مجردة وإنما يجادلون لإقناعهم بنظرية شاملة تتضمن نظرية سياسية كلية) وكانت حركة علي بن الفضل القرمطي أول حركة تحرز نجاحاً سريعاً وتقيم أول دولة للقرامطة على الأرض اليمنية تمكنت من توحيد معظم المناطق اليمنية تحت إدارتها في الشمال والجنوب. ولا شك بأن السبب الرئيسي وراء نجاح تلك الدعوة يكمن في قدرتها التنظيمية وبرامجها الاجتماعية المتقدمة التي استحوذت على عقول المجتمع اليمني الذي يسوده البؤس، وثمة سبب إضافي ألا وهو تميز علي بن الفضل من بين الدعاة الآخرين بكونه وطنياً يمني المنشأ. وإذا كان ثمة شيء يؤسف له حيال تاريخ الصراع الفكري في اليمن فلن يكون سوى ضياع مآثر وأفكار الدولة القرمطية، واقدام خصومها السياسيين والأئمة على الأخص على اتلاف جميع المخطوطات والوثائق الخاصة بدولة علي بن الفضل، ويبقى من نافلة القول أن كتابة خصوم علي بن الفضل عن دولته وممارستها لا يمكن أن تكون وثائق جديرة بالثقة، وهي غير صالحة في نظر التاريخ للتدليل على أي حقائق هامة عدا حقيقة واحدة فقط وهي أن خصوم علي بن الفضل والكاتبين بأمرهم أضاعوا فصلاً مشرقاً في التاريخ اليمني وحقبة مهمة من كفاح الشعب اليمني من أجل الحرية السياسية والاجتماعية.

ومن الناحية الفكرية فإن الدعوة الزيدية التي حملها إلى اليمن الهادي يحيى بن الحسين في القرن الثالث الهجري خلال مرحلتين متتاليتين اضطلعت بدور رئيسي في مناهضة افزار القرامطة برغم تعثرها في البداية وعجزها على فرض سيطرتها على المناطق اليمنية عدا صعدة وما حولها لمدة زمنية طويلة، ولم تستطع الهادوية التوسع إلا بعد مضي وقت طويل تمكنت أثناءه من اقناع اليمنيين بهويتها المحلية وقطع صلاتها بمراكز التوجيه الفكري والسياسي خارج اليمن.

وفي خضم الصراع الذي شهدته اليمن حينذاك برزت دويلات يمنية تقودها زعامات اقطاعية محلية كاليعافرة وغيرهم، غير أن الأمر المهم في هذا الصدد أن الصراعات الفكرية والسياسية التي اجتاحت الساحة اليمنية عقب انتشار تلك الحركات أفضت إلى تجديد الحياة الفكرية بصورة شاملة وغدت اليمن مركزاً حضارياً مهماً تتصارع على أرضه العديد من الأفكار والآراء السياسية والدينية بعد أن كانت مجرد مستورد للصراعات إن جاز التعبير، تردد فقط صدى الأفكار والنظريات التي تنتج في الشام والحجاز والعراق. ومن ثمار تلك المرحلة برزت إلى الوجود نظرية سياسية يمنية مستقلة

لها ملامحها المحددة عبر عنها المفكر اليمني الحسن بن أحمد الهمداني بوصفه ممثلاً لمجموعة المثقفين اليمنيين ذوي التفكير الاستقلالي. وتلخص أفكار الهمداني بكون اليمن ذات كيان وطني تبلور عبر التاريخ على أرض محددة تحققت عليها هذه الدولة اليمنية الموحدة لها انجازات حضارية لا تزال بعض آثارها شامخة تدل عليها وتكون الحصيلة النهائية طموحاً موحداً نحو إعادة هذا الكيان اليمني إلى التشكل من جديد والفعل في حركة التاريخ. ومن الواضح أن الهمداني لم يكن منطلقاً من صراعاته ضد الأئمة والحركات غير اليمنية الأخرى من روح التعصب الاقليمي أو العداء للدولة الإسلامية المركزية، إذ اعتمد في تحليله على أسس موضوعية اجتماعية وتاريخية تستهدف قبل كل شيء البحث عن معادلة سياسية تسمح لليمنيين بالمشاركة في الحياة السياسية لعصرهم في نطاق الدولة الإسلامية أو تأسيس كيان مستقل في حالة الافتقار إلى التكافؤ في ظل الدولة الإسلامية المركزية وهو ما برهنت عليه وقائع الحياة السياسية الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين، ومع أن الهمداني مسلم شديد التدين فإن دراسته المتعمقة وموهبته في استخدام العقل لمحاكمة النظريات السياسية حدت به إلى استخلاص النتائج العلمية الواقعية فلم يكن يرى ثمة دليل على صحة النظريات التي

أفرزتها عملية الصراع على السلطة منذ السقيفة وما بعدها والتي تحصر مركز الزعامة الإسلامية في قريش دون غيرها وكان ينظر إلى الخلافة باعتبارها أمراً منفصلاً عن النبوة وأن السلطة السياسية أمر دنيوي قابل للاجتهاد. كما أن مصير الخلافة الإسلامية قد تقرر خلال العصور المختلفة على أساس الغلبة والقوة بعيداً عن النصوص الدينية التي لم تشر إلى هذا الموضوع أبداً بل وبدون ممارسة حقيقية للشورى ولهذه الأسباب فإن المفكر الهمداني غدا رمزاً للفكر الاستقلالي اليمني وزعيماً لمدرسته، ومرجعاً يعتمد عليه في التاريخ والبحث العلمي في المجالات الاجتماعية والسياسية، وكان من البديهي أن ينخرط في صراعات عنيفة مع الحاكمين على اختلاف مناهجهم السياسية وأن يلاقي الاضطهاد والقمع والسجون ويتهم بالتعصب والعداء لآل البيت. الأمر الذي حمله على الفرار من مدينة صعدة التي أحبها وألَّف فيها العديد من كتبه القيمة واتجه إلى صنعاء التي كانت تحكمها الدولة اليعفرية بيد أن حكومة الإمام الناصر طلبت إلى اليعافرة اعتقال المفكر الهمداني وتم ذلك بالفعل حيث أودع في سجن صنعاء في نوفمبر ٩٣١م - ٣١٩هـ مما حدا بالعديد من القبائل اليمنية في لواء صعدة إلى التمرد ضد حكومة الإمام الناصر ومقاتلتها انتصاراً

لحرية المفكر الوطني الهمداني والضغط من أجل إطلاق سراحه دون التأثر بادعاءات الأئمة بأن الهمداني معاد لآل البيت. ويكتسب كفاح الهمداني من أجل الحرية كمفكر سياسي أهمية تاريخية خاصة وحالة ذات مغزى خاص بهذا الصدد تمثلت في انتفاضة القبائل اليمنية غير المتعلمة من أجل حريته كمفكر سياسي معارض وتقديم التضحيات لتحريره ومن أجل حقه في الإبداع وفي الرأي الآخر. والأمر الآخر الذي يلفت الانتباه هو اتفاق الدولتين الهادوية واليعفرية برغم ما بينهما من صراع وتنازع على السلطة على أمر واحد فقط وهو تقييد حرية المفكر الهمداني وقهر أفكاره كما لو أن بينهما اتفاق (أمني) بلغة العصر الراهن وعملية كهذه طالما تكررت عبر التاريخ.

## مرحلة ما بعد الهمداني

من الواضح أن الصراعات السياسية والفكرية لم تتوقف في المراحل التي تلت، غير أن الأساس الفكري لمعظم المعارك تأسس في الواقع خلال المرحلة التي عاصرها الهمداني وشهدت توطد سيطرة المذهب الزيدي على أقسام مهمة من

المناطق الشمالية في اليمن، وأفول مذهب القرامطة واختفاء آثاره كلياً وقد لعب الأئمة دوراً كبيراً في الصراع على السلطة بعد ذلك سواءً فيما بينهم أو مع الزعامات القبلية والدينية الأخرى، ونشطت العديد من الحركات والمذاهب الدينية والسياسية كالاسماعيليين والخوارج، وفي بعض المراحل سادت اليمن أكثر من دولة واحدة وأكثر من إمام، ولعب الصليحيون دوراً هاماً في عملية الصراع على السلطة وأظهروا قدراً من العدالة والعمل من أجل توحيد البلاد دون أن تؤثر عليهم صلاتهم الفكرية بالفاطميين، بينما اكتسب الفكر الزيدي بعداً مهماً من خلال تبنيه غير المعلن لأفكار المعتزلة واعتمادها كمنهج في علم الأصول والاحتكام إلى العقل في التعامل مع النص، وإذا كان الشعب اليمني قد خاض معارك متواصلة ضد كل حكم أجنبي أو طاغية محلي فإن النص في المذهب الزيدي على (وجوب الخروج على الظلمة) أضفى على المجتمع روح مشبعة بالثورة والتمرد والاستعداد للمقاومة ويكتسب النص الأصولي في المذهب الزيدي الذي يقر (بل يوجب مبدأ الخروج على الحاكم الجائر) أهمية خاصة لا من حيث توافقه مع النزعة الكفاحية الراسخة في أعماق الشعب اليمني فحسب بل ولكونه يقدم التبرير العقائدي اللازم ويزيل كل ريبة أو شعور بالذنب لدى

أفراد المجتمع عند كل ثورة، وبما أنه من غير الممكن الولوج أكثر في سرد الوقائع والأحداث التي صاحبت كفاح اليمنيين من أجل الظفر بالحرية السياسية والاجتماعية في المراحل المختلفة ويستحيل كذلك سرد اسماء الدول والعصور التي مرت بها بصورة متسلسلة ومتوالية في مقالة صحفية كهذه فإنه يهمنا التأكيد على حقيقة مهمة وهي أن الشعب اليمني لم يغادر خندق الكفاح من أجل الحرية السياسية والاجتماعية قط، كما وأن مبدأ الخروج على الظلمة ظل يتجسد عملياً في نضال الشعب الوطني والاجتماعي في العصور المختلفة وكان من النادر، أن يتمكن حاكم فرد أو أسرة من الامساك بزمام السلطة لأكثر من جيلين أو ثلاثة مهما بلغت سطوته ولعل هذا أحد الأسباب التي تفسر تعدد الدويلات اليمنية بل والأئمة أحياناً في زمن واحد ومن المهم التنبيه إلى أن الكفاح من أجل الحرية السياسية ومقارعة الطغاة لم ينفصل أبداً عن الكفاح من أجل التحرر الاجتماعي الوطني كما أنها لم تنفصل كل هذه الأهداف عن هدف رابع مهم وهو إعادة وحدة الشعب اليمني بعد كل مرة يرغم فيها على التمزق بفعل النزعات الاقطاعية المحلية أو نتيجة لغزو أجنبي وهو ما حدث أكثر من مرة، وحينما نلقي لمحة على التاريخ اليمني في العصر الوسيط يبرز أمامنا التلاحم العضوي بين الأهداف

الوطنية في الاستقلال وإعادة توحيد البلاد وبين الأهداف السياسية والاجتماعية في الانعتاق من ربقة الاستبداد السياسي والاستغلال الاقطاعي، وقليلون هم الزعماء اليمنيون الذين أفرد لهم التاريخ مكانة خاصة ووصفهم بالعدل والوطنية، ولم يكن أولئك الزعماء سوى من لعبوا دوراً بارزاً في التصدي للغزوات الأجنبية وإعادة توحيد الوطن.

ومن المعلوم أن نهجاً كهذا كان ينعكس بصورة مباشرة في سلوك أولئك الزعماء تجاه الشعب وعلاقتهم معه، ذلك أن كل زعيم كان يرسم أمامه طموحات كبرى مثل هذا كان يحتاج بالضرورة إلى دعم الشعب وقوته، ولا يتأتى ذلك إلا بنسج أواصر الثقة مع الشعب ومنحه الديمقراطية والعدالة والحصول منه على الدعم والتأييد الاختياري غير المشروط وهذا ما فعله علي بن محمد الصليحي وعامر بن عبدالوهاب والسيدة أروى بنت أحمد وقليلون غيرهم. وفي هذا الصدد فإن الحقبة التاريخية الطويلة التي امتدت من عصر الهمداني وحتى الثورة السبتمبرية عام ١٩٦٢م حافلة بالتمردات والانتفاضات السياسية والاجتماعية العديدة، ولعل مما يرتدي أهمية استثنائية ما يذكره بعض المؤرخين المعاصرين

عن الالتفاف الذي حصل من قبل الفلاحين حول بعض الشخصيات الطيبة التي كانت تكره الاستغلال وتتبنى مطالب الفلاحين، بل وتحول ذلك الالتفاف إلى اضفاء الفلاحين عليهم حالة من التقديس تحولوا بموجبها بعد موتهم إلى (أولياء في نظر المجتمع) مثلما يحكى عن أحمد بن علوان، ومثلما حدث قبل سنوات من سقوط حكم الإمام يحيى حينما تجمع الفلاحون حول شخص يدعى حميد الدين أو (حميد الديك)، كما لقبته السلطة الإمامية، الذي ظهر في المقاطرة داعياً الفلاحين إلى الثورة ضد مستغليهم والسيطرة على الأرض بصورة جماعية. فتدفق عليه الفلاحون من كل حدب وصوب وكاد يصبح زعيماً اجتماعياً ذا شأن لولا اقدام الإمام يحيى على قمعه والقضاء على جزيرة الحرية التي أنشأها، ولكن بالرغم من ذلك فإن ذكرى ذلك المناضل الاجتماعي الذي أشاع الإمام بأنه شخص معتوه لم تذهب من أذهان الناس وعقولهم وستبقى كذلك في ذاكرة ابنائهم من بعدهم. ومهما يكن جانب المبالغة في هاتين القضيتين أو حتى الأسطوري فإن ذلك يدل دون شك على أن ملحمة النضال من أجل الأرض كانت وما برحت تحتل مكاناً مرموقاً في صفحات التاريخ وفي نفوس الشعب.

أما على صعيد الكفاح من أجل الاستقلال والسيادة الوطنية، في تلك المرحلة فمسألة يطول شرحها وحسبنا أن نشير إلى أن الغزوات التي تتالت على اليمن في العصر الإسلامي قد صدت جميعها بالقوة وليس ثمة جيش أجنبي واحد وطأت أقدامه أرض اليمن إلا وخرج منها منكسراً يجر أذيال الهزيمة بما فيها تلك الجيوش التي غزت اليمن، فكان السيف والحجارة مع العزم والحب الراسخ لتربة الوطن أشد منها بأساً وأعظم فاعلية.

ومن المفهوم أن اليمن تعرضت في أوائل عصر النهضة لمحاولات الغزو من قبل الاستعمار البرتغالي وكذا الاستعمار الإنجليزي في القرن التاسع عشر وقاومهم شعبنا على النحو الذي هو معروف. غير أن الأمر الجدير بالانتباه والتمعن أن الشعب اليمني تعرض كذلك لغزوات تركية تحت راية الإسلام، وباسم الأخوة الدينية، ولكن الشعب اليمني كان لديه من الحساسية تجاه المس بسيادته الوطنية ومن الفطنة ما دفعه إلى خوض غمار الكفاح الوطني وتقديم التضحيات ضد كل محتل بصرف النظر عن الراية التي يحملها.

ولا شك بأن الأوضاع الاجتماعية السائدة التي تمثلت بالتحرير النسبي للفلاح اليمني من روح القناعة وانعدام

السيطرة الاقطاعية الشاملة أي خلو بعض المناطق من الأراضي الخصبة التي تساعد على نشوء الملكيات الاقطاعية الواسعة وامتلاك بعض الفلاحين لقطع من الأرض الصغيرة والمتوسطة ومنهم على الأخص سكان المرتفعات الجبلية شكلت سبباً اضافياً لنزعة المقاومة والتمرد لدى قسم كبير من السكان وطبعاً لا تعني هذه الحيثية النفي المطلق لسيادة علاقات وأسلوب الانتاج الاقطاعي وشبه الاقطاعي، وبهذا الصدد أيضاً فإن الطبيعة الجغرافية القاسية التي تتمثل بسلسلة الجبال الشامخة والسهول الواسعة كانت عوناً للمواطن اليمني في كفاحه ضد المحتلين وستبقى كذلك برغم قسوتها سوراً منيعاً يحمي بجانب أبناء الشعب استقلال الوطن وسيادته.

## التسامح هو الوجه الآخر

## لموقف الشعب اليمني تجاه الحرية

إن موقف أي شعب من الحرية يتمثل بالإضافة إلى الكفاح العملي من أجلها بمدى تسامحه تجاه الآراء والعقائد المختلفة والمتناقضة بين أفراده وعلى الأخص سلوك الغالبية منه حيال

حرية الضمير والحق في اعتناق أي مذهب سياسي أو ديني مختلف، ولقد أشرنا إلى سلوك اليمنيين تجاه الآراء والعقائد الدينية والسياسية لدى بعضهم في عصر ما قبل الإسلام، ولا تختلف الصورة كثيراً في العصر الإسلامي حيث بقي التسامح سمة عامة غلبت على سلوك اليمنيين. وفي الحقيقة فإننا نستطيع القول بأن التسامح غدا تقليداً راسخاً في حياة الشعب اليمني خلال القرون الماضية، بيد أنه يتعين علينا قبل التطرق إلى بعض الأمثلة العملية التفريق بين سلوك التسامح للغالبية العظمى في الشعب وبين بعض الحكام وذوي المصلحة في قهر الشعب واستغلاله الذين دفعتهم شهوة السلطة والمصلحية الأنانية إلى كبت الآخرين واستلاب حريتهم مهما كانوا بما في ذلك خصومهم السياسيون من نفس الفئة أو الطبقة أو من جماهير الشعب.

ويتفرد الأئمة بسجل حافل بشتى أصناف القهر والطغيان فعلى الصعيد الفكري مثلاً لم تكن الاسماعيلية والقرامطة من قبل هي التي عانت من اضطهادهم وقمعهم فحسب بل إن بعض طوائف الزيدية نفسها تعرضت أيضاً للإرهاب على أيدي بعض الأئمة ويصعب حصر أو تحديد صنوف الاضطهاد السياسي وحسبنا أن أكثر من إمام قتل آخر أو

سجنه بما في ذلك اقتتال العائلة الواحدة في بعض الأحيان كما هو معروف.

كما وأن الشعب تعرض للقمع والابادة من قبل الأئمة غير مرة، وما برحت أعمال الإمام شرف الدين واساليبه القمعية التي طالت المئات من القبائل اليمنية ماثلة في الأذهان ويرويها جيل لآخر.

وعلى أي حال فإن الأئمة وأمثالهم قد انتهوا وأرسل الشعب بآخرهم إلى مزبلة التاريخ والمهم فيما نحن بصدده أن الصحائف السوداء لجميع الطغاة الذين سلفوا لم تستطع أن تغطي على التقاليد الشعبية اليمنية المتسامحة كما لم تستطع أبداً قهر الروح الوثابة التي تعشق الحرية وتحترم حرية الآخرين، ومن المعروف بهذا الصدد أن مذاهب إسلامية عديدة سادت المجتمع اليمني طيلة مراحل التاريخ السابقة وعاشت في سلام ووئام دون أن تحدث فيما بينها أية حروب مذهبية كتلك التي حدثت في بلدان أخرى، وفي الوقت الذي طورد زعماء المعتزلة وشوهت آراؤهم وأحرقت كتبهم أو أخفيت في العديد من الأقطار العربية كانت اليمن موئلها الأمين الذي حفظت خزائنها تلك المخطوطات القيمة التي ظلت أقوى شاهد على النزعة العقلية لدى العرب.

وفي فترة الانحطاط التي سادت المجتمع العربي الإسلامي بعد أفول نجم الحواضر الإسلامية مثل بغداد والأندلس أبدع اليمنيون نتاجات فكرية وأدبية جيدة وبرزت كوكبة من العلماء المجتهدين الذين ألفوا العديد من الكتب الدينية والتاريخية وتضمنت آراء غير مقبولة رسمياً لانطوائها على مضامين سياسية تستهدف التشكيك بشرعية السيطرة الإمامية قبل كل شيء.

ولعل من أبرزها مؤلفات ابن الأمير والشوكاني والمقبلي والجلال وغيرهم ولقد استطاع أولئك الزعماء الأفذاذ أن يتبؤوا مكانة بارزة في مجال الفكر العربي الإسلامي، وتحت حماية المجتمع ورعايته تمكنوا من نشر آرائهم وتدريسها لتلامذتهم بحرية تامة ومن حق المجتمع اليمني أن يعتز بهذا السجل المشرق في مجال الحريات الفكرية ذلك أن هذا المجتمع لم يرحب أبداً بإحراق الكتب المخالفة وعبر تاريخه لم يحكم على هذا العالم أو ذاك بالموت لتصوفه أو لقوله بخلق القرآن أو قدمه. ويبقى ما قام به الحكام من اضطهاد لأي آراء دينية أو سياسية مخالفة أمراً آخر له دوافع سياسية أكثر من أي شيء آخر، ويتحملون بمفردهم مسئوليته ولابد من القول أيضاً بأن الطبيعة المتسامحة للمجتمع اليمني

واستهجانه لأي إرهاب فكري شكل عامل ضغط على الحاكمين وحال بينهم وبين الامعان والتوسع في أعمال القمع ووفر الحماية لبعض المفكرين مثلما سبقت الإشارة إليه.

## رحيل الاستعمار التركي

## والمفهوم الجديد للحرية

لقد شكلت حرب الاستقلال التي خاضها الشعب اليمني ضد المستعمرين الأتراك معلماً بارزاً في تاريخ الكفاح التحرري للشعب اليمني ومنعطفاً مهماً له مدلولات سياسية واجتماعية جديدة برهنت قبل كل شيء على تأصل الروح الوطنية والحب العميق للحرية وعلى الرغم من القيادة السياسية المتخلفة للأئمة التي كانت على رأس المقاومة وأسلوب الحكم الاقطاعي الذي مارسه الأتراك على اليمن وفرض العزلة عليها فإن روح المقاومة اليمنية قد شقت طريقها إلى عقول وأذهان الآلاف من أبناء اليمن الذين أصروا على جلاء الأتراك وتحقيق استقلال الوطن وتوحيد أرضه، دون أن تفت في عضدهم مساومات الإمام يحيى وتنازلاته للأتراك من خلال اتفاقية دعان الشهيرة واختزاله لأهداف الشعب الوطنية

والاجتماعية عن طريق تحويل الصراع مع الأتراك إلى صراع مذهبي ديني يتعلق بالإشراف على الأوقاف وقبض الزكاة.

ومثلما قاوم الشعب تخاذل القيادة الإمامية وتجاهل ضيق أفقها سخر كذلك من ادعاءات الأتراك التي تزعم بأن وجودهم في اليمن وإلحاق الخراب والدمار بأراضيه وقتل أبنائه يهدف إلى حماية الإسلام ومقاومة الاستعمار الغربي.

وعلى أي حال فإن عزم الشعب اليمني وتصميمه على الاستمرار في خوض معركته الوطنية الخالصة أفضت في النهاية برغم كل التضحيات إلى تحقيق الاستقلال الوطني الناجز، ولا يقلل من أهمية تلك المعركة ومشروعيتها ما آلت إليه الأمور من بعد على يد الإمام يحيى خصوصاً وقد اتضح للمكافحين ضد الأتراك الطبيعة الحقيقية لنظام الحكم الذي سيكون على رأسه زعيم متخلف كالإمام ومن المؤكد أن الكثيرين من زعماء النضال الوطني لم يفاجأوا قط بنهج الدولة الإمامية بعد الاستقلال ولا بسلوكها القمعي تجاه الشعب وزعماء التحرير الآخرين.

ومن المؤكد أن بعض القادة الوطنيين تخلوا عن أوهامهم حيال الدولة الإمامية وعقدوا العزم على مقاومتها منذ أول لحظة غير أن السبب الرئيسي في تحول المعارضة ضد الإمام من الانتقادات المحدودة لبعض سياسات الإمام إلى معارضة

سياسية شاملة يكمن قبل كل شيء في اقدام الإمام يحيى على التفريط باستقلال الوطن وسيادته من جديد عن طريق القبول بشرعية وجود الاستعمار البريطاني في جنوب البلاد والتفريط بأجزاء مهمة من الأرض في شمالها وكان من البديهي أن يرد الإمام على معارضيه بالقمع والسجون الأمر الذي أذكى جذوة الكفاح الوطني لا من أجل الحرية فحسب بل ومن أجل صيانة سيادة الاستقلال الوطني وبرغم العزلة الشديدة التي فرضها النظام الإمامي على الشعب والحيلولة بينه وبين الاتصال المباشر أو غير المباشر بالعصر الذي يعيشه والاستفادة من منجزاته الحضارية فإن مواكب الكفاح من أجل الحرية شقت الطريق من جديد وعجز السور الحديدي الذي أقامه الإمام حول اليمن عن صد رياح الحرية والتغيير، ولقد ساعدت التطورات الثورية على صعيد العالم والتقدم السريع في مجالات العلم والثقافة على إحداث بعض التغييرات الطفيفة في جسم المجتمع اليمني وبروز بعض الشخصيات المتنورة التي ترفض الاستبداد الحميدي وتتوق إلى عصر جديد وبفعل المعطيات الجديدة على الصعيدين الوطني والعالمي أضحى النضال من أجل الحرية يرتدي طابعاً راديكالياً معاصراً يتعدى مجرد الحصول على الحق في تأليف كتب الفقه ويتجاوز الجدل حول القياس والاجماع

وصحة الاسناد والرواية إلى آفاق سياسية واجتماعية رحبة تهتم بمطالب الشعب وحريته وبمستقبله الوطني ومصيره وبصرف النظر عن الطبيعة الذهنية لزعماء المعارضة طرحت مفاهيم الحرية والمساواة والتقدم على بساط البحث. ولم يعد ذا بال مجرد البحث عن الإمام الأصلح وجواز الخروج على الإمام الجائر من عدمه وتطلب الأمر بالضرورة برنامجاً جديداً للنضال يتسم بمسحة عصرية ويحتفظ في نفس الوقت ببعض الأسس السلفية المشفوعة إلى هذا الحد أو ذاك ببعض الأفكار المتنورة التي طرحها زعماء التجديد الديني مثل الأفغاني ومحمد عبده، وعلى هذا المنوال الذي كان مزيجاً من المفاهيم الليبرالية للثورة الفرنسية كالحرية والمساواة وأفكار التجديد الديني صدرت مجلة الحكمة اليمانية لتعبر بوضوح عن ذلك النمط من التفكير الديني والسياسي على قاعدة التزاوج بينهما بشكل يمكن من توظيف جوانبها المختلفة في الصراع ضد الحكم الإمامي ولعبت مجموعة المثقفين الدينيين المتنورين بزعامة أحمد عبدالوهاب الوريث دوراً رئيسياً في تلك العملية، غير أن الجهد النظري الفكري والسياسي لأولئك المكافحين بقي لفترة من الوقت يتسم بالطابع التبشيري الفردي غير المنظم دون أن يرقى إلى مستوى المعارضة السياسية المنظمة بيد أن الأعمال القمعية التي واصلت توجهها

دولة الإمام يحيى ضد الشخصيات الدينية والسياسية المعارضة وازدياد تردي الأوضاع السياسية والاقتصادية في البلاد والجور الذي لحق بالفلاحين في العديد من المناطق دفعت بالمزيد من الاشخاص إلى صف المعارضة من جانب ومن جانب آخر سيطر الشك على الإمام يحيى تجاه العديد من الشخصيات وعلماء الدين البارزين بحيث غدا يتصور أن كل عالم مبرز أو شخصية ذكية إنما يقف إلى جانب المعارضة وضد الإمام وهكذا اتسع نطاق المعارضة وأخذت تكتسب ملامح سياسية جديدة وتفكر بتنظيم نفسها ومن ثم العمل على إسقاط دولة الإمام يحيى، ومن الحقائق الجديرة بالتسجيل أن السجون التي ملأها الإمام يحيى بالمعتقلين من معارضيه تحولت إلى مدارس فكرية وسياسية للمعارضة وساعدت على توجيه أنظار زعمائها إلى أشكال نضالية تنظيمية وعملية أكثر فعالية وإذا كانت بعض الشخصيات قد لعبت دوراً رئيسياً في قيادة أول عمل تأسس لحركة الأحرار كالمحلوي والمطاع، فإن السجن مثّل عاملاً مساعداً بالغ الأهمية حسب الاستنتاج الفذ للدكتور عبدالعزيز المقالح. وعلى هذا النحو بدأت معركة الأحرار من أجل الحرية واستمرت دونما توقف حتى لحظة إسقاط دولة الإمام يحيى عام ١٩٤٨م.

ومما له مغزى بهذا الصدد أن الواقع الاجتماعي والسياسي المتخلف وطبيعة التركيب القيادي لحركة الأحرار لم تمكنهم من تشكيل تنظيم سياسي جماهيري يرتكز على قاعدة شعبية عريضة تخيف الإمام يحيى وتضغط عليه وإنما اقتصر وجودهم على مجموعات من علماء الدين والمثقفين وبعض زعماء القبائل وبتأييد عدد صغير من المغتربين في الخارج، ومع ذلك فقد كان الإمام يحيى بالغ الحساسية تجاه نشاط الأحرار وكان بوسع مقال سياسي في صحيفة أو بضعة أبيات من الشعر للموشكي أو الزبيري أن تقض مضاجع الإمام وتحيل حياته إلى جحيم ومن الطبيعي أن يحدث ذلك لأن الطغاة المستبدين مهما كان جبروتهم يخافون دائماً من أي صوت حر ناقد لسياستهم حتى لو كان فردياً ومحدود التأثير وقديماً شبه أفلاطون تأثير كلمات أو أفعال المفكرين الأحرار على الحكام المستبدين بتأثير الذبابة على الفرس الجامح حينما تحط على ظهره فتؤلمه بلدغاتها رغم قوته وحجمه الكبير إلى آخر المثال الذي عرف باسم (ذبابة سقراط) وحتى في حال قتل ذلك المفكر المناهض للاستبداد أو سجنه تظل قضيته العادلة تؤدي نفس الدور.

## القضية الأساسية

## في كفاح الأحرار

أشرنا في الفقرات السابقة إلى البذور الأولى التي كونت منهج الأحرار الفكري والسياسي تلك الجذور التي تجمع بين المنهج الإصلاحي لحركة المجددين الإسلاميين وبين فكرة الحرية والمساواة ذات المضمون الليبرالي القادمة من أوروبا والتي تبلورت على شكل أفكار سياسية وحقوقية متكاملة عقب الثورة الفرنسية ومن المؤكد أن التفكير السياسي للأحرار الذي حاول المزج بين المنهجين الديني والبرجوازي المعاصر لم يكن مجرد مصادفة محضة أو نتيجة لقراءات هذا الزعيم أو ذاك من زعماء الأحرار، بقدر ما كان تعبيراً نظرياً عن طبيعة التطور السياسي والاجتماعي الذي أصاب المجتمع اليمني ووجود أول نواة للبرجوازية في المدن اليمنية وتأثير ميناء عدن ودور المغتربين اليمنيين في الخارج وهو تعبير كذلك عن طبيعة التركيب الاجتماعي والفكري المتعارض وغير المنسجم لحركة الأحرار وعلى الأخص في هرمها القيادي، ومهما تكن الملابسات النظرية حول هذا الموضوع فإن

الأهداف العامة لحركة الأحرار يسهل تحديدها واستخلاص ما هو الرئيسي منها من خلال كتابات زعمائها وبعض الوثائق النظرية التي صيغت قبل وأثناء الاستيلاء على السلطة عام ١٩٤٨م وأهمها مقالات الشهيد الزبيري وأشعاره، والميثاق الوطني والمراسيم القليلة التي أصدرتها حكومة عبدالله الوزير. ودونما الدخول في تفاصيل كثيرة أستطيع القول بأن الطابع الغالب على أشعار الزبيري ومقالاته يتركز في مناهضة الاستبداد الإمامي وشجب ديكتاتوريته وايغاله في قمع الشعب واثقال كاهله بالضرائب والغرامات المختلفة وليس من قصيدة أو كتاب للزبيري يخلو من نبرة العداء للاستبداد والتغني بالحرية، وفيما يتعلق بالميثاق فإن مضمونه الأساسي يتركز في إنشاء حكومة ملكية دستورية وإقامة العديد من المجالس التشريعية والإدارية التي تتمتع بصلاحيات دستورية وتنفيذية تحد بالضرورة من صلاحيات الإمام المطلقة وتوسع نطاق المشاركة في صياغة القرار السياسي وتضفي روحاً جماعية نسبية على تصريف شئون الدولة فبالإضافة إلى النص على إقامة نظام حكم شوروي يدعو برنامج الأحرار أيضاً إلى عصرنة الحياة عن طريق إقامة المشاريع العمرانية والبحث عن الثروات والاهتمام بالتعليم والصحة، وعلى ضوء هذه المعطيات المستخلصة من

البرنامج العام لحزب الأحرار يمكن القول بثقة بأن الجوهر الأساسي في منهج الأحرار يتركز في الكفاح من أجل الحرية بمعناها العام، وبينما يشوب الغموض أفكارهم حيال الحرية الاجتماعية والموقف من كفاح الفلاحين ضد الاستغلال والإقطاع بل والنظام الإقطاعي برمته باستثناء ماورد على لسان الحكيمي الذي وصف دولة الإمام يحيى بالدولة الاقطاعية، فإن أفكارهم تجاه الحريات السياسية تكاد تكون محددة بشكل واضح وتحت راية القضاء على الاستبداد الحميدي وكفالة الحريات ثم إسقاط دولة الإمام يحيى عام ١٩٤٨م بواسطة النضال السياسي العنيف. ومهما تكن الآراء مختلفة حيال حركة الأحرار فإن مآثرهم التاريخية تكمن في كفاحهم العنيد من أجل الحرية وجرأتهم في نقض وتسفيه إدعاء الأسرة الحميدية بقداسة الإمام وحقه التاريخي في الزعامة السياسية والدينية وعدم جواز معارضته أو نقده بوصفه حاكماً على الأرض باسم الإله وبنص (القرآن والسنة) كما وأن قيام الأحرار بتشكيل أول حزب سياسي معارض بأساليب عصرية يرتدي أهمية تاريخية غير عادية خصوصاً في الظروف الاجتماعية والسياسية التي كانت تسود بلادنا حينذاك.

## شكر وتقدير

نتقدم بالشكر لكل من أسهم في طباعة هذا الكتاب بدعم كل من:

- د.محمد احمد المخلافي.
- صالح احمد المليكي.
- عبدمحمد البرمكي
- قائد احمد مصلح الحكمي.
- احمد أحمد الهديس.
- شائف الحدائي.
- محمد علي المطاع.
- رشيد ماجد.
- عبدالله الصباري.

طبعة ثانية 2014

منتدى الشهيد /جارالله عمر
رقم الإيداع بدار الكتب
( ١٣٩ / ٢٠١٤ )